إبراهيم نصر الله

# عَوْ...



رواية





إبراهيم نصر الله

# عَوْ...

رواية

عَـوْ...

**عَو... / رواية عربيّة**
إبراهيم نصر الله
**الطبعة العربيّة الثانية ، ١٩٩٩**


**المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**
**المركز الرئيسي :**
بيروت ، ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
**التوزيع في الأردن :**
**دار الفارس للنشر والتوزيع**
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
صورة الغلاف :
**إبراهيم نصر الله**
الصفّ الضوئي :
**دار الشروق ، عمّان**

ملاحظة:
أي تشابه بين هذه الرواية والواقع
مقصود تماما
باستثناء الأسماء

قَمَعْتَ.. فأمِنْتَ.. فَنمتْ

قال الجنرالُ ذلكَ، وأسلم عينيه لهدوء عميق، يبعث الحياةَ في روحه ويجددها، هدوء هائل، بات مستعداً لتفجير كلّ ما حوله من أجله، وحاول أن يسترجع شريط يومه:

كان قد غادر مقرَّه.. اندفع بسيارته عبر الشوارع باتجاه بيته الجديد الذي يجري بناؤه في ضاحية الغابة، مطمئناً كان، حتى أنه زجرَ حراسه حين همّوا بمرافقته.

قال: لم أفعل ما فعلت حتى الآن، لكي أسيرَ في الشوارعِ محفوفاً بالحرس.

عبرَ الظهيرة، وأبحر في سيل العربات تطالعه الوجوه من داخلها مكدودةً، فقدَ الصبرُ فيها هدوءهُ، يتأمل بعضها، ويتساءل: كمْ من أصحاب هذه الوجوه مرَّ عليّ؟

يبتسم: لقد ربيتُ هذه المدينةَ على يدي... علّمتها يوماً بعد يوم هذه الوداعة، ودفعت الكثير من أعصابي وعمري لأعبرها مطمئناً.

وعندما اقترب من إحدى إشارات المرور، لم يمنعه شيء من فتح زجاج العربة المضاد للرصاص.

تهامس رجل وامرأة في العربة المحاذية، وهما يسترقان النظرَ

إليه.. حدَّقَ فيهما بكل ما فيه من اعتداد.. فابتعدا بأعينهما، وجياه سائق سيارة سرفيس والخوف يقطر من قسماته.

تحركت العربات وهدرتْ أبواقها يستحثُ بعضها بعضاً.. وهمسَ الجنرال لنفسه بصوت مسموعٍ مغموسٍ بالنشوة:

قمعتَ.. فأمِنتَ.. فنمتَ.. أو تجولت..

وابتسم

* * *

امتدت الشوارع.. هذه الحبال السوداء التي تصل المدنَ بالمدن، والبيوتَ بالبيوت، واللحظة باللحظة التي تليها.. غربة الوعاء عما بداخله، وغربة القمصانِ عن الذين يرتدونها.. غربة الخطى عن رمل الطريق.. الشريحة السوداء في الليل الأسود الطويل.

عبرت نسمة من بين شجرتيِّ صنوبرٍ تشقان أحد الأرصفة، ومرقت كسهمٍ من شباك العربة وخرجت من الشُباك المقابل، فانتعش الجنرال، وامتلأ حتى آخرهِ بزهو سحري لا يوصف.

* * *

الأشجار تظللُ المنطقة بأكملها.. بعض البيوت تأخذ حيزاً في البساط الصنوبري الأخضر فوق تل واسع.

الصعود إليها يتطلب الكثير من المشقة، انعطاف إلى اليمين في زاوية حادة، ثم تسلّق السفح الأكثر صعوداً قبل الانعطاف يساراً حيث تنبسط الأرض تحت عجلات العربة الزرقاء. وفجأة يجد نفسه هنا في برج مراقبة.. حيث المدينة بكاملها تتعرى أمامه.. غير قادرة حتى على الاختفاء في أزقتها!

* * *

لم يكن للمنطقةِ أهمية، ولا لغابتها، حتى ذلك اليوم الذي عبرَ فيه الجنرالُ السماء الصافية بطائرةٍ مروحية، فوجيء بوجود غابة.. دار دورتين فوقها. هتف:

غابةٌ بهذا الجمال وسط هذا البلد، ولا أعرف بوجودها إلا مصادفة.. ثمة تقصير إذن، ثمة شيء لا أعرفه.

سأل: ما أسم المنطقة؟

ارتبك مرافقوه، وغزتْ عاصفةٌ من القلق قسماتِ مساعده الخاص، إلّا أنها لمعت في ذهنه فجأة، تلك الإشراقة، وهذا لا يحصل كثيراً.

فهتف: «ضاحية الغابة» سيدي.

اسم جميل

تمتم الجنرال

لم يعد مساعده الخاص إلى بيته ذلك اليوم.. ذهب إلى مقر المدينة، وطلب اجتماعاً فورياً لأعضاء لجنة التسمية، حيث تقررَ اطلاق اسم «ضاحية الغابة» على المنطقة الممتدة من حوض ٢٤ إلى حوض ٣٧، وإزالة اسمها القديم من كل السجلات.

وفي اليوم التالي اندفعت الجرافاتُ العسكرية لتسوية المكان، تمايلت الأشجار تراوغ الأسنان المعدنية للآليات، ولكن دون جدوى، وألقت الشركات معداتها وأخشابها.

* * *

حين حوَّمَ الجنرالُ ثانيةً في سماء الصنوبر المطحون ضحك كالزلزال، انتشى.

: الآن لا سرّ للغابة.. لقد فضحت كل أسرارها.. لا ليس هذا فقط.. فوق تل كهذا سأبدو دائماً أمام عيون المدينة منتصباً كالقدر.

* * *

لاح البيتُ بقرميده الأحمر القاني، خفقَ قلبُ الجنرال طرباً، تماماً كما كان يحدث في تلك الأيام البعيدة حين يُطبقُ بدباباته على محاولة انقلاب أو تمرد في ساعةِ صفرها.

خفق قلبه.. حتى أفاق على نباح الكلب المربوط في شرفة الطابق

الأول من المبنى.. فاطمأن إلى نجاعة أساليبه في مجال الترويض.

عادةُ الكلب أن ينبح ثلاث مرات تفصل بين الأولى والثانية ثانيتان كلما رأى عربة الجنرال، أو سمعَ هدير محركها يندفع صاعداً التل.

أوقف السيارة، اندفع إليه ذلك الشخص المكلّف دائماً بإحضار طعام الكلب مبتسماً.. وانحنى..، في يده كيس، يكفي ما فيه لسد جوع الكلب يومين أو ثلاثة أيام قبل أن يموت..

كان الجنرال يحرص على أن يقلب الكيس بنفسه.. يفرحه تناثر الطعام على التراب الأبيض، حيث يتمرغ الكلب، وحين يأتي من البيت يحمل شخصياً ذلك الفتات...

نبح بحنان مفرط.. التصق بالأرض متجاوزاً حتى ذلك الحد الذي يبهج الجنرال حين يراه بهذا الوضع.. نبحَ وتمرغ ما أن عبرت رائحةُ بقايا الطعام القادمة من مطبخ الجنرال رأسه، ثم قام ليؤدي الحركة التالية من احتفائه.

استند على قائمتيه الخلفيتين فَرِحاً، وأطلق الأماميتين إلى مداهما.. فتجاوز بذلك قامة الجنرال القصيرة إلى حد ما.. فانزعج الجنرال. وهذا أحد الأسباب المهمة التي جعلته يحمل ضغينةً من نوع ما لكلبه الوفي:

كيف يكون كلب أطول مني.. كيف؟!
ولكنه كان بحاجة إلى نباحه.

ألقى ما في الكيس من فتات وبقايا عظام.. لم يكن ذلك يحدث في الأيام الأولى.. في تلك الأيام، وهي ليست بعيدة في الحقيقة، كانت معرفته بالكلب تتوطد، وكان يحضر إليه من الطعام الطازج ما لم يحلم به كلب ضال، لا يملك أكثر من نباحه، ولكن ذلك تغير تدريجياً.

بدأ الكلب يدرك هذه الحقيقة، فلا يملك إلا أن يبسط أساريره ويعلن طربه كلما أمعن في الأكل.. أي أكل..

ويطير قلب الجنرال حين يراه أحياناً يقضقض عظمة عارية بمنتهى النشوة. فيهمس من المهم أن يحس هذا الحيوان بأننا نقدم له شيئاً مقابل نباحه.

* * *

هو كلب عادي.. عادي تماماً.. طالعه الجنرال في بيت الصفيح المخصصِ لحارس الورشة.. كان واقفاً عندما مرّ الجنرال.. ولكنه انبطح بتذلل.. وكأنه أدرك أهمية هذا الرجل الذي يمرّ قربَهُ.. مرصعاً بنياشينه..

قال للحارس: لِمَ هذا الكلب؟

قال: يحرس المكان!

قال: وأنت؟

ارتبك الحارس

فالتفتَ الجنرالُ إلى مهندسي البناء.. قال: اعطوه نصف أُجرته واصرفوه.. والنصف الآخر لشريكه.

قال الحارس: حرام..

وزجرَ المهندسين حوله: ابعدوه.. هذا الكلب سيقوم بالمهمة..

* * *

مضى الكلب في طعامه.. وصعد الجنرال السلالمَ الداخليةَ للبيت.. يوم غد تبدأ مرحلة جديدة.. وينتقل العمل إلى الداخل..

تجولَ في المكان.. اطمأنَّ إلى سلامة الهيكل.. أنعشه الجو الصافي.

- كم يطيب لي أن أجلس هنا.. وأشرع النوافذ وأتركها حرة تبتلع الجهات!

* * *

في الشرفة العليا للمنزل وقف، وأطل على البيوت المجاورة.. متباعدة كانت.. ولكن كان يستطيعُ أن يرى بوضوح ذلك البيت القابع في

ظلال بيته.. فهو ليس بعيداً.. ولا يُشكِّلُ أكثر من بيتٍ متواضع أمام بيته واندفاعه الصاعد بجلال إلى قبة السماء.. وأساسات البيت. حين قال له المهندس المشرف: لم نحفر أساساً بهذا العمق من قبل.

قال له: احفروا أكثر.. أساساتي يجب أن تكون راسخة تماماً فلستُ كغيري.

وقف الجنرال في الشرفة العلوية.. لمح سيارة رمادية تقتربُ.. ابتسم ما أن رآها..

: ملعونةٌ هي العَظْمَةُ كَم هيَ مغرية.. ملعونة..

* * *

عبرت السيارة الرمادية فناء البيت المجاور.. هبط منها رجل بقامته المديدة وسنواته الأربعين.. كاملاً مثل قمة جبليّة.. هكذا رأته امرأته من إحدى النوافذ فابتسمت.. وانطلقت باتجاه الباب ناشرةً ابتسامتها..

لمح الجنرالَ.. في شرفته العالية.. لم يستطع التفكير فيما يجب أن يفعله.

يعرفه.. ويقابله على صفحات الجريدة يومياً، هو الآن جزءٌ من يومه.. لم يستطع أن يفعل شيئاً.. تظاهرَ أنه لم يره.. تذكرَ ما كتبه ليلةَ أمس.. في زاوية «كلمة الصحيفة» التي تحتل جزءاً مهماً من النصف الأعلى للصفحةِ الأولى. ولكنه لم يكن قادراً على القاء التحيةِ على الجنرال.. كان مكسوراً.. يحسّ أن يدَ الجنرال في مؤخرته.. اندس في فسحة الباب فَرِحاً بأن امرأته لم تتركه ينتظر أبداً وتوارى.

* * *

كانت تلك الأيام غير هذه..

قالَ له «الأنيق» في غرفة التحقيق..

: ماذا تريد.. جاهاً على خازوق، لا يغرنَّكَ هذا الصدى.. وهو صدى فعلاً.. هذا الذي تحدثه كل قصة من قصصكَ وأنت تلقيها لهذه الصحفِ الصغيرةِ التافهةِ أو تلك لكي تنشرها، أنت تعرف أننا قادرون على إغلاق

هذه الصحف.. وإغلاق فمكَ إلى الأبد.. ثم هناك مسألة أخرى: لقد قرأت هذه القصص جيداً.. قرأتها بتجرد تام، وبحثت عن موهبة ما بين سطورها فلم أجد شيئاً.. قصص فارغة.. مجرد خراريف.. لا تضيف شيئاً لشخصكَ ولا للعالم حولك.. ما الذي يمكن أن تكتبه ويشكل إضافة وكل هذا السيل من العمالقة لا يزال يهدر..

«دوستوفسكي».. «نيوتن».. أو «أديسون».

قل لي.. لو أتيح لك أن تواجه نفسك بصدق فكيف تقيم أعمالك؟

- أولاً نيوتن وأديسون ليسا أديبين.

- صحيح؟! .. أنت تفهم إذن!!!

- ثم اننا لسنا في جلسة حوار أدبي لأُدلي برأيي فيما أكتب.. ولكن الناس يقيمون هذه القصص وأعرف أنهم يحبونها.. كما أنني لا أنشرها فقط في هذه الصحف التافهة.. بل أنشرها في مجلات وصحف عربية محترمة ومعروفة.. وفي أية عاصمة أُريد.

كان الأنيق يعرف ذلك جيداً.. وهذا جزءٌ أساس في استدعائه.. لقد قال له الجنرال أربع كلمات فقط حين استدعاه منذ يومين: «أحمد الصافي.. بدنا اياه».

قال المحقق وكأنه يوجه إبرة ليفقأ البالون الذي نفخه الكاتب:

- أعرف ذلك.. ولكنني أحب أن أقول لك أن تلك الصحف لا تقل تفاهةً.. إنها مجرد جعجعات فارغة.. ممولة من جهات تعرفها وأعرفها.. ولا شك أنك تعرف أننا نستطيع شراء الصحيفة أو المجلة أو دار النشر التي نريد.. وكلّ ما علينا: أن ندفع أكثر.. وكل ما له سعر فهو رخيص.. أليس كذلك؟. ثم.. ثم ما الذي يمكن أن تحققه قصصك في عالم عربي.. لا يقرأ..

أنا أعرف أن أفضل زملائك الكُتاب الكبار. ومطّ كلمة «الكبار» حتى سالت حروفها لزجة على عنقه - مثل نجيب محفوظ.، وابتسم بسخرية - لا يطبعون أكثر من الفين أو ثلاثة آلاف نسخة من كتبهم لعالم

عربي يصل عدد سكانه إلى أكثر من ١٥٠ مليوناً..

إنكم تصرخون في بئر مهجورة.

- دعونا إذن نمارس هذا العبث.. فنحن نحبه.

- إن مهمتي هنا أن أُعيدك إلى وعيك.. أن أرشدك.. أُنبهك أن أفتح عينيكَ على الحقائق.. ولا أظن أنني مضطر أن أفعل ذلك باعتقالك مثلاً.. بسجنك وتعذيبك.. فنحن أيضاً لا نريد أن نجعل من أي منكم بطلاً.. ولأنك لن تكون بطلاً في يوم ما.. وهذا وعد قاطع مني، فإنني أنصحك أن تكون إنساناً محترماً على الأقل.

تذكر أحمد الصافي ما كتبه ناقدٌ كبير حول قصته الأخيرة المنشورة في إحدى المجلات العربية. وتأكيده على المستوى الرفيع الذي تتمتع به هذه القصة في الأدب العربي.. تذكر كلمات قالتها له إحدى طالبات الجامعة التي صادفته في الطريق العام وسط العاصمة.. فأقبلت راكضةً تُسابقُ خطواتها بعد أن كانت تجاوزته وأقبلت مشرعةً بهجتها على عرضِ الشارع..

- الأستاذ أحمد؟!!

ابتسم قال: بعينه.

قالت: قصتك الأخيرة «بتجنن» يا أُستاذ.. «بتجنن».

وعلى الرغم من أنه لم يرضَ عن تعبيرها النقدي المتمثل في كلمة «بتجنن» إلا أنه أحس أنه كاتب يقرؤه الناس ويعجبون به..

ضحك المحقق: ابتعدتَ.. ليس هذا بالوقت الملائم لكتابةِ القصص. لا .. بل ربما يكون كذلك.. هل أُحضر لك ورقةً وقلماً؟!

- أنت تقول أننا نصرخ في بئر مهجورة، وأنا أُعيد ما قلته.. دعونا نصرخ كما نريد.. أنت تعرف.. ليس لديكم أي شيء ضدي.. لذا لا يوجد هناكَ أي مبرر لإحضاري هنا وزجّي في هذا الجو العدواني عشرةَ أيام متتالية.

- عدواني؟ كيف.. هل أسأت إليك.. هل ضربتك مثلاً.. وأنت تعرف

أننا قادرون على إيذائك.. لكن.. بالمناسبة كيف أحوالُ العمل لديك، أنني أُتابع مقالاتك اليومية.. تستطيع أن تعتبرني متخصصاً فيك.

- ...

- أوضاع العمل صعبة في كل مكان.. وعليك أن تحافظ على وظيفتك.. أليسَ كذلك.. هذا يتطلب أيضاً بعض الجهد. بل كل الجهد.

- إنني أكتبُ يومياً.

- هذا لا يكفي.

- هل يكفيكَ الراتب مثلاً.. لماذا لا تذهب إلى الخليج، فرصتُكَ هناك عظيمة..

- يكفيني راتبي.. ولا أُحب العمل في مكان آخر.

- أنا مثلاً راتبي يكفيني ويزيد.. أن يكفيك راتبك شيء وأن تعيش كما يجب شيء آخر.. فأنت ككاتب محترم.. معروف عَربياً!! يلزمكَ أن تكون في بحبوحة أليس كذلك.

- كل الناس يحبون العيش في بحبوحة.. وأنا أكتب من أجل ذلك.

- أي أنك تفتقد ما تكتب من أجله، ورغم ذلك لا تعمل من أجل تحقيقه.. لا تستطيع أن تخدعني.. إننا نعرف بيتك فهو أشبه بحظيرة.

* * *

كان الجنرال واقفاً في الشرفة العليا.. حين أندس أحمد الصافي داخل بيته ذي الواجهات الأنيقة.. والنوافذ المسلَّحة بقضبان الحديد والزجاج الأسود..

ابتسم الجنرال: يُغيِّر الأحوال.. أو أُغيِّر الأحوال.. من كان يصدق أنني وأحمد الصافي سنسكن في الشارع نفسه.. ونصبح جيراناً؟!

* * *

نبحَ الكلب سروراً.. فعرف الجنرالُ أنه انتهى من تناول وجبته.. منذ مدة يراقبُ كلبَهُ بعين خبيرةٍ: هذا الكلب بعد أن يوشك أن يموت

مثلاً.. وقبل دقائقَ من ذلك.. أُحضر له طعامَهُ فيهبُّ فَرِحاً بأي شيء قديُقدمُ له. ما يحتاجه.. هكذا تقولُ خبرتي.. ما يساعده على إطلاق نباحه إذا أحسَّ بحركة غريبة.. نباح فقط.. نعم خبرتي جيدة.. بل ممتازة.. ويهيأ لي أنني استغلها على أفضل وجه.. حماية المنزل لا تتطلب وجود حارس مسلَّح حتى أسنانه.. بحاجة إلى نباح كلب فقط. وما دام النباح يسدُّ فراغ الحارس وسلاحه فلماذا يكون هناك حارس؟!

خطر بباله شيءٌ يتعلقُ به.. وبدوره.. ارتعد..
وبدأ يهبط درجات السُّلَّم العارية..

* * *

بعذوبتها التي لم تزل تملأ ملامحها.. وتتركز هناك على جانبي شفتيها.. في النقطتين الساحرتين.. اندفعت وطوقتْ عنقَهُ..

ـ تأخرتَ اليوم.. حبيبي..

ولكنها ما إن رأت وجهَهُ حتى أدركت أن شيئاً مخيفاً حدث.. كان فَزِعاً يتصببُ العرق من جبينه.. كان يودُّ أن يهرب إليها.. ولكنه لم يستطيع، داهمه حس ما أنها ساهمت في اللعبة. ولذا وجد نفسه يرتمي في حضن أول كرسي يصادفه.. ويتقوقع هناك.

ـ ما لك حبيبي.. مريض؟
.. لم يُجب.

كيف يستطيع أن يفسر لها.. لا يستطيع.. إذن فليصمت.. أما هي فوجدت أن بإمكانها إخباره بشيء يفرحه.. وتعرف دائماً أنه كان يُفرحه.. بذلك تبدد هذه الغمامةَ السوداء!

ـ حبيبي مقالك اليوم كان رائعاً.. أصداؤه واسعة.. خابرتني أكثر من صديقة.. وهن يهنئنك فعلاً.. هكذا يجب أن تكون الكتابةُ وإلاّ فلا..

ولكنها لم تعلم أنها أشعلت أصابع الديناميت.. سيطر على انهياره.. لملمَ ذاته المبعثرة ليقف ويبتعد عنها وعن كلماتها..

ـ أرجوك يكفي إلى هذا الحد.. ومرّ من بين ذراعيها اللذين اندفعا لاحتضانه مبتعداً..

تذكر مقالَهُ الآخرَ غيرَ المُوَقَّع الذي يتصدرُ الصفحةَ الأُولى.. لماذا تتجمع المصائب في يوم واحد؟!

لو كان اللقاء حدثَ في يوم غير السبت.. الذي يجيء دوره فيه لكتابة مقالته السياسية لتغير كل شيء.. ولكن كيف يتغيّر كل شيء.. يتغير اليوم.. وغداً ماذا أقول فيه.. لن تمضي فترة طويلة قبل أن يصبح الأسبوع كلُّه أيام سبت.

ورأت زوجته أن الوقت مناسب لإخباره بشيء جديد حول كتابته

: حبيبي ما الذي يغضبك.. هل قلتُ ما يُغضب.. لقد فرِحتُ بآراء زميلاتي.. كما أن واحدة ـ وبالمناسبة كل يوم أكتشف أن لك معجبات أكثر مما تتصور ـ معجبات ـ لا تنسى تاء التأنيث يا لئيم!

كان قد وصل إلى زاوية التقاء المطبخ بالصالون..

: لقد سألتني إحداهن وهي من قرائك الذين يتابعون إنتاجك بشغف من سنوات طويلة.. أكثر من عشر سنوات.. تصوّر؟!

سألتني: متى سنقرأ له قصصاً جديدة.. أخبريه على لسان قارئة أحبت كل ما كتب.. إننا نفتقده اليوم مبدعاً.. صحيح أننا نحب مقالاته.. ولكن.. أين قصصه؟!

عند ذلك عصرَ الزاويةَ بظهره.. وانكمش كأنه يحاول أن يختفي فيها.

ـ أنت متضايقٌ؟!.. أعرف ذلك.. ولكنها قالت لي بصراحة: أن الزواج قد يكون السبب.. وهذه مسألة متعلّقة بي.. يجب أن تكتب يا أحمد.. حتى ولو كان ذلك من أجلي.

* * *

أكان عليها أن تنكأ هذا الجرح.. في هذا اليوم.. يوم السبت

أيضاً.. وتحركت يد الجنرال في مؤخرته، وهو يدرك أنه مخصي الآن.. منذ زمن.. ولذا لن يستطيع الكتابة.. لن يستطيع الاقتراب من أي عمل إبداعي جديد..

صرخ: كُفي عن أسئلتك هذه.. وغيّري الموضوع. نظرَ إلى المرآة فلاحَ وجهه قابعاً هناك في أقصى العتمة.. مثل رجل مصاب بالحُمّى..

همس لنفسه يطمئنها: نعم.. لن أُواصل اللعب هكذا.. سأكتب.. سأكتب قريباً.. وسأحاول تضييق الحيز الزمني الذي تبتلعه الصحافة من وقتي.. سأحاول.

هذا الكلام قالته منذ زمن:

ومنذ زمن نظر إلى وجهها: ولكنك تعرفين أن ما أكتبه فيه خدمة للناس أيضاً.. وأنا لم أتخل عن قرائي.. كل ما حدث أنني أُخاطبهم في صيغ أخرى.. نوع آخر من الكتابة، له قطاع عريضٌ من القراء.. أكبر حتى من قراء القصص.

ولكنه كان يدرك أنه خصي من زمن طويل.. وأن كل محاولاته لكتابة قصة واحدة بالمستوى الذي يريد ذهبت أدراج الرياح، ولكن كيف انكسر هكذا.. دون أن يتلقى حتى ولا ضربة مباشرة واحدة، وأيّ دورة هذه التي دارها الزمن في السنوات الماضية ليفيق بعدها وإذ به يسكن في شارع الجنرال. وإنهما جاران.. «الحيط بالحيط».

* * *

قال له المحقق في تلك الأيام....:

أنا لا أُريد منك الكثير.. ولكنني أحب أن أعرف بصراحة هل تنتمي فعلاً لهذا البلد. بكل ما فيه أم لا؟.

قال: أنا أنتمي لـ هذا البلد.

قال: بكل ما فيه؟

- لا أستطيع أن أقول ذلك.

- لماذا؟

- لأنك أنت كمحقق لا تنتمي لكل ما فيه.

- ما الذي تقوله؟

- أقول أنني أيضاً من «هذا البلد» وهناك كثيرون مثلي.. فهل تنتمي إلينا؟.

- انتفخت أوداج المحقق. . تلك.. كانت المرة الأولى التي يفقد فيها أعصابه..

- أنتم مجرد حشرات.. فكيف ينتمي الإنسان لحشرة؟!

- ولماذا يهمّك أن تنتمي هذه الحشرة إليك؟!!

.. أنت قلت أننا نصرخُ في بئر مهجورة.. ونحن مجرد حشرات في نظرك إذن دعونا وشأننا.

- أنت إذن مع خراب «هذا البلد».

- بل مع عَمَاره.

- ولكنك تجرؤ على القول أنك تؤمن بشيء ولا تؤمن بشيء آخر.. أي تكتب لجزء من الناس.. وليس لكل الناس. أين موقعنا مثلاً في كتابتك.. لا.. لا يوجد لنا موقع.

امتدت يد المحقق. ضغطت مفتاح الجرس الكهربائي.. اندفع أحد المراسلين..

: أوصله إلى الباب..

وقبل أن يبلغ أحمد الصافي باب الغرفة. جاء الصوت.. نلتقي غداً في الموعد نفسه.

قال المحقق: يجب أن يسقط.. يجب أن يسقطوا كلهم.. ثم أدرك أن هذه العبارة بهذا الشكل تمسّه، فارتجف غيظاً.. يجب.. يجب أن يعرف مصلحته!!

في الممر الطويل الواصل بين الظلمة والضوء.. كان أحمد الصافي

يسير يتبع المراسل.. وقد تعكرت كل بقايا الأمل بأن تنتهي المسرحية.

ولكن.. إنها حرب.. ويجب أن أصمد.. يجب أن أصمد.

وتذكر سليم البحري أحد أبطال قصصه التي نشرها في بداياته وتتناول قصة سجنه،

سأله المحقق في الجلسة الأولى عنها.. عن زمانها.. ومكانها..

فقال: إنها تحدث في أحد السجون الإسرائيلية.

فقال المحقق يومها: إذا هيك مش مشكلة!

* * *

هبط الجنرال حتى وصل إلى الكلب.. داعب فروة رأسه، فامتلأ الكلب طَرَباً.. ركبَ السيارة.. استدار ـ دوّى صوت محركها وهدير عجلاتها في البيت المجاور..

خطا أحمد الصافي باتجاه النافذة..

حاذت العربة الزرقاء سورَ البيت.. ابتعدَ عن النافذة فزِعاً.. ناسياً أن الجنرال غير قادر على رؤيته من خلال الزجاج الأسود.. وأعطى ظهره للحائط البارد.

جاء صوت فتنه: يقولون أن جارنا «الكبير» سيكون الجنرال..
.. هل تعرف ذلك؟
ـ لا.. لا أعرف.

* * *

اندس في فراشه بثيابه.. وخزته البقع السود المترامية على جلده... ابتعدت فتنة بعد أن تذكرت أنها أوشكت أن تنسى عادة تعلّمتها منذ بدء زواجهما: ان تتركه لوحدته ولنفسه كلما أراد أن يخلو ليكتب أو يعتزل. أدركت ذلك متأخرة.

لم يعد يسمع خطواتها في الممر أو حركتها في المطبخ.

* * *

هكذا مرّت.. أثيرية.. ففوجيء بها.. راقبها طويلاً عن بعد في قاعة نادي الخـريجين الجامعيين، وبنى أكثر من صداقة باردة ليضمن غطاءً لتردده على النادي، كانت أُمسية، وكانت ترتدي جينز أبيض وسترة بيضاء.. تحتها بلوزة حمراء مشدودة، طالعته كمهرة. فوجيء بحضورها الطاغي.. حاول أن يُعدِّل وضع كرسيه خلف الطاولة المخصصة له ولمدير النادي الذي سيقدمه للجمهور، حتى يستطيع رؤيتها بوضوح.

بدأت الأمسية.. وبدأ يقرأ.. اكتشف أنه يقرأ لها.. اكتشف ذلك متأخراً.. أحست هي بذلك.. عدّلت كرسيّها مبتعدةً فأصدر صريراً فاضحاً في لحظة توترت فيها أحداث القصة.. ولكنّها عادت وأطلت برأسها من فوق الاكتاف المتراصة.. وبدأت تحدق به.. وعاد ليقرأ لها.

قال: سأسميها فتنة..

انتهت الأمسية.. بحث عنها ولكنها كانت قد اختفت تماماً..

لم يعدْ يسمع خطواتها في الممر.. ولم تجرؤ أن تسأله إن كان سيأكل أم لا.. هكذا أوصاها في البداية.. والتزمت.. ثم لم تعد هناك حاجةٌ لهذا المطلب.. فهو لم يعد يكتب إلاّ في الصحيفة..

دوى صوت الجرس في أرجاء البيت.. لم يتحرك من مكانه.. لقد عاد فارس من المدرسة.

* * *

في الخارج نبحَ الكلب.. ولكن أحمد الصافي كان مطمئناً أن الكلب سيصمت بعد قليل.. فقد شبعَ.. ولن يبدأ وصلةَ النباح الثانية قبل الفجر.

ونام.

* * *

اتسعت الشوارع وتغيرتْ.. تغيرت المدينة والناس..

من يمرّ اليوم بها.. لن يستطيع اختراق طبقات الاسفلت ليتذكر أو يرى آثار خطواته..

إسفلتٌ.. إسفلتٌ يتراكم ويتراكم.. وليست مصادفة أن الشوارع أصبحت أكثر ارتفاعاً من الأرصفة.

كل هذا السواد يندفع بساطاً لاهباً ويجلل المسافات..

تغيرت المدينة.. وأصبح الشارع أوتوستراداً.. أصبح فضفاضاً إلى الحد الذي لم يعد للناس حضور فيه.. ضاقت الناس واتسعت الشوارع.. وظلت العمارات ترتفع في كل مكان..

بعد المساء مباشرة.. ستبحث عن طيف.. وتتسع عندها المدينة وتتسع.. ويختفي المدى في بحر حلكتها.. وفي الصباح ستنهض متثاقلةً.. وتزحف باتجاه ما تبقى من سهول خضراء حولها وتبتلعها.. ليعمّ الخراب.. والترابيّ العقيم.

كل الأشياء تأتي مُعلّبةً.. المصانع.. والعربات.. التحية والابتسامة.. الهواء معلب.. والبشر يطلون من عُلب مجهزةٍ بالمواد الحافظة ويعبرون الطرقات.

حتى الشجر.. يأتي مُعلّباً..

فعندما تقرر عقد اجتماع طارئ للجنرالات لتدارس الأوضاع الخطيرة.. قامت بلدية المدينة بالعمل ليل نهار.. وقد نُقل الشجرُ بالطائرات من بلاد لا يعرف الشيطان اسمها وفجأةً.. امتلأتْ الشوارع بأشجار عالية.. غريبة عن التراب وعن الهواء.

كل ذلك ليتمتع الجنرالات بالمشهد الجميل في ذهابهم إلى قصر المؤتمرات وعودتهم منه..

ولكنّهم في اللحظةِ الأخيرة قرروا الوصول إلى قصر المؤتمرات مستخدمين الطائرات العمودية. فأصيبت الأشجار بانتكاسة لم تنج بعدها، انعكست على أوراقها وغصونها، ولم تتح للأغنام الفرصة الكافية لقضمها ذابلةً، بسبب تمديد اجتماعات المؤتمر.

* * *

في هذا الليل الطويل نفسه.. الذي يبسط يده على المدينة.. كان الجنرال ساهراً في شرفة بيته القريب من الملعب الرئيسي، الهتافات كانت تتصاعد. قدَّرَ أن المباراة حامية.. فهي مباراة تحدد المؤهَل لخوض معركة البطولة، وسرّهُ أن كلمة البطولة كلمة طيبة الآن.. لا يسمح بترديدها إلّا في الملاعب.. ولذلك فهو على ثقة من أن التصفيق والهتاف له وحده.

كل شيء له وحده

حين اشتكى إليه بعضهم بأن هناك متاعب تحدث في المباريات قال: فلتكن المباريات مستمرة طوال العام، ولذلك لم يعد المتفرج يخرج من باب الملعب حتى يعود من جديد، واختصاراً للجهد ولضمان الحصول على تذاكر في الوقت المناسب، قام بعض مشجعي الفرق الرياضية بنصب خيامهم في قطعة الأرض الضيقة الموجودة شرقي الملعب، وقاموا بإحضار أبنائهم وزوجاتهم.

والوصول إلى خيار الخيمة في الحقيقة لم يكن ليلجأ المشجعون إليه، لو أنهم وجدوا شققاً للإيجار في المنطقة المحيطة بالملعب.. تلك التي انتعشت فجأة.. وأُقيمت فيها الفنادق والمطاعم ومجلات السوبرماركت.

كانت اللحظات تتقدم وتوغل في المفاجأة.. والليل يزداد ليليَّةً.. وبدأ الجنرال لعبة جديدة.. لقد قرر أن يتابع المباراة من خلال الأصوات القادمة من الملعب.. ركز تفكيره تماماً.. أصبح هناك.. قدَّر: الكرّة الآن في منتصف الملعب، الوصول إلى حارس مرمى الفريق المدافع ميسور.. نعم المجال مفتوح الآن.. فالجماهير تستحث الهجوم لاستغلال الفرصة، يتقدم الهجوم إلّا أن قوة حضور الحارس تحول دون وصول الكرة إلى الشِّباك.. أضف إلى ذلك أن الرهبة وعدم الثقة متعمقة في داخل أفراد الفريق المهاجم حتى الوَريد، ولولا ذلك لكانت المباراة مهرجان أهداف لصالحه.

.. هناك الآن ضربةٌ ركنيةٌ بلا شك: نعم ثمةَ صمتٌ أعقب صرخةً مدوِّيةً لم تأخذ مداها.. لم تصبح هدفاً!

الحارس يعيد الكرةَ ثانية ليعقبَ ذلك مدٌّ للفريق المضغوط.. صوتُ الجمهور يأتي من الناحية القصية للملعب.. التركيز مُنصبٌّ على ميسرة الفريق الأول نظراً لإنشغال قلب الهجوم في الواجب الهجومي فقط.. لذا عبر لاعبو الفريق الثاني خطوط الفريق الأول.. فالحماس يزداد.. والوضع بات مفرحاً ومشدوداً في نفس الوقت، إلّا أن تألق حارس المرمى يصدهم على أعقابهم..

تنطفىء موجةُ الصراخ.. يعقبها صمتٌ.. ضربة ركنية أخرى بلا شك.. الكرةُ تجتاز الأقدام كقذيفة مراوغة.. ليكون مسارها المضمار مع أن الأصح لها بين الثلاث خشبات!!

وينطفىء الجمهور ثانية..

* * *

ساد صمت.. طال، فأدرك أن الشوط الأول انتهى، دبَّ الحماس فيه.. وقف وبدأ يمارس تمرينات رياضية في الشرفة.. دخل إلى الصالون.. استغل امتداد والفراغ الواسع بين أثاثه.. ركض.. عاد إلى الشرفة.. واصل ركضه الموضعي: قال في نفسه: لم أزل شاباً.. نعم ولا أثر للسنوات.. سوى هذه الشعرات البيض.. كل شيء تمام.. تذكَّرَ المولود الأخير.. فازداد نشاطاً.. في الداخل.. كانت زوجته وأبناؤه يتابعون شريطَ فيديو.. وتصله ضحكاتهم المغموسة بأجواء الصراخ الشرس بين «توم وجيري»..

قال: أعجبُ كيف يتعاطف الأطفال والناس مع فأر.. الفأر حيوان نتن.. مقرف.. لماذا لا يتعاطفون مع القط.. فهو القوة في النهاية. وهو الأجمل والأكثر فائدة.. ما الذي يمكن أن تفيده من فأر؟ لا شيء. هل لأنه خبيث وذكي.. ولكن من قالَ أن القط غير ذكي.. نعم.. هناك أفكار خاطئة نزرعها في أدمغة الأطفال.

وقرر أن يوصي مساعده الخاص صباحاً باستدعاء مدير عام محطات الإنتاج التلفزيوني.. وأن يكلفه بتنفيذ مسلسل.. تكون الغلبة فيه

للقط دائماً.. ولا بأس أن يكون الفأر لعوباً بعض الشيء حتى تستمر اللعبة..

قطعَ أفكاره الهتافُ القادم من الملعب ثانيةً.. عاد إلى مقعده جلس هناك.. حاول أن يُركز أكثر هذه المرة رغم أنه مسرور من نتائج محاولته في الشوط الأول..

عمّ الصمت. تراجعت الأصوات القادمة من كل الاتجاهات.. وبقي صوت واحد أخذ يتغلغل فيه أكثر وأكثر.

ثمة هجومٌ مباغت.. للفريق الثاني.. فجمهوره في الطرف الآخر من الملعب يتصايح.. الصرخاتُ تتصاعد أكثر وأكثر.. لاعبُ الدفاع يسوق الكرةَ مخترقاً الهجوم ومتجاوزاً دورَهُ.. يرفع الكرةَ.. وبضربة رأس متقنة يصد هجومَ الفريق الثاني ويحرز الهدف في الدقيقة الأولى..

يبتهج الجنرال..: ضربة محكمة.. سريعة.. خاطفة.. لم يعرف الفريق الأول من أين أتته..

قُرِعَ جرس الباب.. لحظات وكان مساعده الخاص واقفاً أمامه. قدم له مغلفاً.. فض الأوراق.. قرأ.. ابتسم.

قال المساعد: سيدي تمت عمليات الاعتقال بهدوء.. كل الناس في الملعب هكذا خُيِّلَ إلينا.. فكرتك كانت مبدعة استغلال وقت المباراة.. لقد تذكرت حكمتك التي ترددها دائماً ستظل هذه المدينة قرية مهما اتسعت.

قلَّبَ الصفحة الأولى وبدأ بقراءة الصفحة الثانية: غارات اسرائيلية على مخيم عين الحلوة. مقتل وإصابة خمسين من سكانه وتدمير ثمانية عشر منزلاً..

ارتفع الهتاف في الملعب ثانية.

قال الجنرال: إصابة أُخرى جيدة.

: عفواً سيدي لم أفهم..

بل إصابتين في مباراة واحدة.

...!!!

كم أُحب هذه المباريات.. كم أُقدس هذا الهتاف.. أتصدق أنا الذي هزَّ الشِّباك.. أنا الذي أدخل الهدف في مرمى الفريقين.. هدف واحدٌ يهزّ شباك الفريقين.. هذه معجزتي.. أليس كذلك. أُحب هذه المباريات.. فأنا الذي يُحدد المواصفات التي تكون عليها البطولة.

إنسحب المساعد نصفَ مدركٍ لما يقصده الجنرال، استدار الجنرال إلى الشرفة ليراقب المشهد.. كانت الأسهم النارية تغطي سماء الملعب.. فغمرته البهجة..

عاد ثانية إلى منتصف الملعب حاملاً كلَّ حواسه.. بدأ الآن فاصلٌ هجوميٌّ صاخب للفريق الأول.. وسط تفكك ليس له أصل أو فصل في خط الدفاع المنتشي بهدفه.. وساهم في ذلك تباعد نقاط الاتصال ما بين أفراد منطقة المناورة.

توالت الفرص ضعيفة للفريقين حتى نهاية المباراة.. ما تبقى من الوقت كان أبيض بمعنى الكلمة.. وخيال الركلات الترجيحية كان يمر في أذهان أفراد الفريق الأول كوسيلة ناجحة لهم للصعود إلى البطولة..

بدأ تركيز الجنرال يتلاشى تدريجياً.. بفعل رتابة الجزء الأخير من المباراة.. حتى أنه قام من كرسيّه الهزّاز.. وأدار ظهره.. وخطا خطوته الأولى باتجاه الصالون حين دوى الهتاف فجأة.. فأدرك أن هدفاً ملعوباً فاته.. في الدقيقة الأخيرة.. قال: لم تزل بي نقطة ضعف، فمن الممكن أن تغافلني كرةٌ في الدقيقة المطمئنة الأخيرة وتهزّ الشِّباك.

* * *

في الليل انتشرت الغابة أكثر.. وتقدّمتْ بظلالها فاجتاحت التلال الجرداء حولها.. سيدةً كانت، أطلت فاحتلت التفاصيل، ولم يبق داخل المشهد سواها.

أضواء خجولةٌ تحاول فض سرِّها، تسطُع على طرفي الشارع، محاولة دائمة لاجتياز حلكة الزمن المتقافزة بين غصونها.. منذ حضر الجنرال للمرة الأولى.. أدرك الجميع.. جميع من هناك أن العصر الذهبي للغابة وما يحيطها قد بدأ ولكن ذلك لم يدم طويلاً.. تدافعتْ العربات العسكرية فوسَّعتْ الطريق واقتلعت كل آثار القديم.. الذي لم يكن أكثر من عمود فقري مُعلَّق بسلسلةٍ من الحفر المتتالية.. كان هذا عيبها الوحيد.. إلّا أنه العيب الذي لا يستطيع أيّ كان التسرب منه ليكون واجداً من جيران الغابة..

للغابة الآن حرمتها المعزَّزة بارتفاع سعر الأراضي حولها.. وتصنيفها السويسري.. ثم من يجرؤ أن يدخلها حاملاً على كتفيه بيتَ صفيحٍ أو بيتاً من تلك التي يَقْبَلُ بها الناس،وحتى لا يذموها يقولون: إنها مستورة!!

انقلبت المنطقة.. فجأة نهضت أعمدة الكهرباء بأضوائها الصفراء.. حالة طوارىء فذة.. ما كانت تتم بهذا الشكل المتقن السريع حتى في ساحة المعركة.

أدرك سكان المنطقة أن شخصية مهمة ستجاورهم.. وابتهجوا كلهم.. ولكن أحمد الصافي تأمل المشهد.. مشهد حياته كلّها في سحابة الغبار الطويلة التي خلّفتها عجلاتُ سيارة الجنرال الزرقاء في صعودها الواثق لانحناءات الطريق وجبليَّته.. ونزولها الأكثر ثقة بعد أن حملت الريح سحابة الغبار الثانية وعفرتْ بها وجوه المنازل وساكنيها..

وإلى زمن طويل سيظل المشهد متكرراً. حتى فتنة التي ابتهجت كثيراً برؤية عربة الجنرال وشخصه بأُم عينها وقريباً إلى هذا الحد قالت إذا استمر تدافع الغبار داخل بيتنا بهذا الشكل فإنني سأُجن.. وكانت قد بدأت بمسح الطاولات ونفض أثاث المنزل..

ولكن أحمد الصافي لم يجد طريقة ينفض بها ذلك الغبار الذي يتسلل إلى أحشائه ويتراكم على روحه. وفي محاولة لتجاوز الحالة قال: هذا ليس بجديد.. والغبار يتراكمُ منذ زمن..

ولكنه انفجر فجأةً في وجه زوجته حين رآها تبالغ في نفض الغبار، فانسحبتْ فتنه بعيداً..

ولم يمتد الزمن طويلاً.. حتى بدأت المنطقة تأخذ ملامحها باكتمال الشارع وزينته.. والجزر المنتشرة في وسطه مكللة بزهور الأقحوان البيضاء.

وفي غمرة ابتهاجها أسرتْ لزوجها في السرير ذات ليلة ـ لو أن الجنرال سكنَ هنا من زمان!!.. في تلك اللحظة التي نبح فيها الكلب.

* * *

ها هو الصمت يعود.. لا يبدده شيء سوى النباح.. المنطقة عامرة بسكانها كما يقولون.. ولكنها موحشة دائماً، أشرع أحمد الصافي الباب.. نزل الدرجات القليلة الموصلة إلى المرآب، فتح باب عربته الرمادية.. كان لانعكاس ضوء القمر المتسلل من بين غيمتين شحوب في لون السيارة.. وكان لريح كانون الثاني ما يكفي من الحضور لإطلاق أنياب العزلة في القلب، فشمس النهار انقلبت إلى نقيضها.. ولكن لماذا يتغير كل شيء هكذا فجأة؟. إن الجنرال شخص مألوف لديه بعد كل هذه السنوات..

سكنَ كلماته وحبره وأوراقه البيضاء قبل أن يسكن البيت المجاور له..

بل.. كيف.. إنه ساكن في داخلي منذ زمن.. كيف أفزع الآن إذ يسكن قربي..

- لعلني سأندم؟؟

- عم تتحدث.. الندم يمكن أن يكون حين نكون أحياء ولكنك ميت.

- لا أحد يرى ذلك. لا أحد يعرف بذلك.. كلّ كتابةٍ مجدتُ فيها الجنرال لم يعرف أحد أنني كتبتها.

- لن أقول لك إن رئيس التحرير يعرف.. والجنرال منذ البداية يعرف..

- هذا لا يهم.. مجرد شخصين فقط..

- ولكنك تدرك أن رئيس التحرير مارس دور القوّاد بصورةٍ رائعة.. والجنرال الَمْ تحس أن يده تجوب مؤخرتك. وأنت ألا تعرف..؟

- أنا.. أنا.

سحبته برودة الريح من عنقه.. لم ينبح الكلب..

لقد بات أحمد الصافي مألوفاً بالنسبة له..

* * *

كم مرّ من الوقت قبل أن يألفه الكلب.. قبل أن يتحول النباح إلى نظرةِ حنان أو تفاهم متبادل وإحساس مشترك بطبيعة الحال. وعلى الرغم من أن الكلب لم يكن يوماً طليقاً.. وظلّ دائماً مشدوداً إلى عمودِ الاسمنت الدائري الصاعد من شرفة الطابق الأرضي إلاّ أن أحمد الصافي لم يكن يطمئن إلى براءة نباحه المفروضة بمتانة الحبل.. هذا الحبل الذي لا يتيح للكلب أكثر من فرصة النباح، والذي يحدد المجال الحيوي لأنيابه.

ألقى الكلب قائمتيه الاماميتين على زنار الشرفة الحجريّ وتطلع باتجاهه.. لمعت عيناه في هيكل من الظل..

قال: ما الذي يراه الكلب مني الآن.. عينين خارجتين من هيكل

ظل؟.. لو كان الجنرال الآن في الشرفة.. ماذا يرى أيضاً.. وفكّر.. من يرى في الظلمة أكثر الكلب أم أنا؟!

* * *

في البداية كان الكلب لا يكفّ عن النباح.. لم يعد يستطيع النوم.. وفكر غيرَ مرة أن يتسلل إليه ويفك الطوق عن عنقه.. ولكنه كان يخشى أن يندفع باتجاهه ويمزّقه.. كان يطلق نباحاً غريباً ممتلئاً بالفجيعة والأسى، ولولا إدراكه أن الكلب واحد من الحيوانات التي تفقد وحشيتها إذا ما توافر لها ما يلزمها في البيوت لقال: إن الكلب يفتقد حريته.

- ولكن الكلب ليس نمراً.

- ولكن هل يمكن أن يصبح النمر كلباً في اليوم العاشر.

كان في البداية لا يكف عن النباح.. ولكن حسّ الفجيعة والأسى كان يختفي فجأة حين تطل عربة الجنرال.. حين يصعدُ الشرفة.. حين يُلقي الطعام..

يندفع الكلب تحت قدميه مصوصياً كدجاجة.

نعم.. المعادلة توضحت الآن الكلب يصبح دجاجة.. فلماذا لا يكون النمرُ كلباً؟. تبأ لزكريا تامر وقصصه كلّها!!

- نعم الحل يكمن في القضاء عليه.

لا لأن الكلب رفع وتيرة نباحه في تلك الليلة.. بل لأنه ذكّره بنفسه. فهو لم يحس بكونه كلباً مثلما أحس في تلك الليلة..

قال: الجنرال لم يضع الكلب هنا عبثاً.. هو يواصل اللعبة معي. عبرت جمجمته قصيدة لعينةٌ لشاعر لعين من هاييتي.. يذكرها وربما يذكر اسم شاعرها.. دوبستر.. نعم رينيه دوبستر..

إنها قصة كلب صغير.
له عينا شيخ تَعِب
كلب يعرف كل ما يمكن أن نعرفه
عندما نقضي حياتنا في الشوارع

أنه يعرف لماذا يوجد في هاييتي رجال
يحملون نظارات سوداء في عزِّ الليل
وهو قد يموت خجلاً لو كان عليه هو أيضاً
أن يحمل نظارةً سوداء
وهو يعرف لماذا آلاف النظرات ترمقه
عندما يجد عظماً يقضمه..
وهو يختبىء حتى يأكله..
ويدير رأسه بعنف
عندما يرى صبيةً في الثالثةَ عشرة
تمنحُ شبابَها الغض من أجل قطعة خبز

لم يجرؤ أن يتذكر أكثر من ذلك. فهو رأى جيداً.. وهو يعرف الشوارع.. وستظل تلك الشقوق الساقطة من جدران طفولته تتجمع فيه مهما ابتعد..

كان عليه أن يسدّها.. ولكنه بدل أن يفعل ذلك هز آخر ما تبقى من الجدران، فاتسعت الشقوق، وظلت تتبعه عابرة دمه.

كان قد ابتعد كثيراً عن المنزل.. لم يستطع أن يعرف كيف قادَ السيارة كل هذه المسافة.. للحظةٍ توقفَ.. استدار باتجاه البيت.. حين اعتقد هكذا أنه نسيَ مفاتيح السيارة في جيب سترته التي كان يرتديها صباحاً!! توقف فجأة.. فبدا كما لو أن السيارة فقدت عجلاتها في لحظة واحدة وهوت ملتصقة بالأرض..

وعندها.. بكى..
فاستراح.

* * *

في الصحيفة قيل له في ذلك اليوم البعيد.. إن الجنرال استدعى رئيس التحرير لأمر عاجل.. وقد ترك لك ورقة في مكتبه.

صعد الدرجات باتجاه المكتب.. وثيراً كان.. دائماً كان يتمنى أن يحتله لساعات.. لساعات فقط، ويمسك زهرةَ الهدوء من عنقها.. كان يدرك

أنه أكثر أهميةً من رئيس التحرير وأكثر شعبية منه.. أما إذا ما نظر إلى المسؤولين عن الأقسام الأخرى فإنه أكثر أهمية منهم مجتمعين.

رغم ذلك كان عليه دائماً أن يسحب نفسه ملبياً نداء رئيس التحرير ويأخذ مقعده بصمت بانتظار انتهاء رئيسه من قراءة ورقةٍ في يده، كما يحدث في المسلسلات التلفزيونية التقليدية.

هذه المرة سبقه المُراسل، فتحَ باب المكتب..

- هل تحتاج شيئاً.. أستاذ؟

- شكراً.

دخل المكتب.. لأول مرة يجد نفسه وحيداً فيه، تأمله جيداً، بحريَّة لم يعرفها من قبل.. رأى المغلف على الطاولة، تناوله «الأستاذ أحمد الصافي المحترم».

فض المغلف.

فض الورقة الصغيرة

«أرجو أن تقوم بمهامي هذه الليلة.. فأنت الأكثر خبرةً».

تذكر أن رئيس التحرير لم يعمل في الصحافة إلّا منذ خمس سنوات فقط، وعلى الرغم من ذلك أصبح رئيساً للتحرير، وهو أحمد الصافي ككاتب معروف ويتمتع بشعبية - حتى على المستوى العربي - لم يستطع أن يكون أكثر من كاتب زاوية يومية «الحقيقة الحلوة.. والحقيقة المرُة» في صحيفة «الحقيقة الحلوة» وظلت مقالاته رهينة مقص رئيس التحرير.

واصل القراءة: «كما أرجو أن تنوب عني الليلة بكتابة «كلمة الصحيفة».

عند الكلمتين الأخيرتين تسمّر أحمد الصافي.. هذا ما كان يخشاه دائماً: أن يُزجَّ به في كتابةٍ لا تمثله..

وعندما تأكد أنه لا توجد مناسبة رسمية، ارتفع نصل الكابوس عن عنقه.. فتنفس بفرح.

.. واقفاً كان لما يزل، حين طُرق الباب.. تقدم المخرج الفني حاملاً إحدى الصفحات الداخلية بين يديه لعرضها على «نائب رئيس التحرير».

أدهشه أن يتكلم المخرج الفني بهذا القدر من الاحترام.

استدار احتل عرشَ الصحيفة. أحس براحة وتسللت نعومةُ الكرسيّ إلى روحه.. عبرته خاطرة:

من يستطيع أن يعرف أهمية ونوعية وحجم كتابتي لو أنني كتبت قصصي وأنا جالس على مقعد مثل هذا؟! ولكن ربما لم أكن لأكتب شيئاً.. لا مستحيل.. فأنا كاتب رغم كل شيء.. رغم كل الظروف.. كاتب.. ومبدع. ومثلما لم يقلل من قيمةِ قصصي الكرسي المتواضع الذي أكتب من فوقه، فإن دفء هذا الكرسيّ لن يسلبني شيئاً.. بالعكس.. سيعطيني مزيداً من الراحة.

تناول الصفحة من بين يدي المخرج.. وباشر القيام بدوره فوراً:

ـ دعها.. سأتصل بك بعد الاطلاع عليها.

قالها بلهجة ثابتة.. تليق بكاتب معروف يتمتع بشعبية واسعة.. قالها بلهجة ثابتة لا يمكن أن تكون مجرد كلمات نائب رئيس تحرير لليلة واحدة..

رنّ جرس الهاتف التفت لم يستطع أن يحدد مصدرَ الرنين فهناك ثلاثة أجهزة.. قدر في النهاية أنه قادم من الجهاز الأحمر ـ الخط المباشر ـ رفع السماعة.. باشره الصوت:

مرحبا أحمد.. هل قرأت الورقة، أتحدث إليك الآن من مكتب الجنرال.. لن أستطيع الحضور هذه الليلة.. أرجو أن تقوم بكل الأعمال اللازمة.. لا تنس «كلمة الصحيفة».. فالجنرال يعرف أنك ستقوم بمهامي هذه الليلة.. ها.. بيِّض وجهنا.

أغلق السماعة.. دون أن يتيح له مجالاً للرد بكلمة واحدة.. دوى الصمت من جديد.. احتل الذرات المتناثرة في الهواء.. فانتفخت، ثم دوى من جديد بإنفجارها.

الجنرال يعرف.. هل هي المصادفة أن أقوم بمهام رئيس التحرير هذه الليلة.. لماذا لم يَقُم بها سكرتير التحرير مثلاً.. هو امتحان اذن. كان قد نسي الصفحة تماماً، نسيَ.. إن ليل الصحافة سباقٌ مع الزمن.. مع المطبعة.. مع الفجر.. وعلى الصحيفة أن تشرق قبل الشمس لتكون بدء نهار الناس.

أعجبته الفكرة.. إبداعيتها.. إيحاءاتها: سباق بين الحبر الأسود والضوء الذهبي.. وها أنا أعمل من أجل أن يفوز الحبر.. قرر أن يكون هذا موضوع الافتتاحية.

عاد المخرج الفني.. طرق الباب.. دخل.. هل اطلعت على الصفحة أستاذ أحمد.

: دعها.. قلت لك سأتصل بك. ولكن المخرج الفني لم يتحرك..

أُستاذ أحمد: الأخبار التي تتردد هذه الأيام في الصحيفة كثيرة ومفرحة.. يقال أن قيامك بمهام رئيس التحرير.. حدث فاصل في كل ما يتردد في الخفاء.

- أية أخبار؟
- هناك منصبٌ جديد قادم في الطريق إليك..

ذكّرته العبارةُ بقارئات الفنجان.. يتحدثن بنفس الطريقة.. ولكن لم لا يصدق ذلك، وإن كان لا يريد تصديقه لِمَ يمنع نفسَهُ من سماعه.

* * *

تلك الليلة أصبحت بعيدة.. مرت بسلام.. وجاءت ليالي غيرها.. فتغيّر الكثير..

* * *

لم تقل له فتنة أنه تغير. استيقظ في دمها نداء بعيد..

عاودها الحنين لما قبل زواجها.. لتلك الحياة التي تجاوزتها بعد أن اقتحم أحمد أيامها بتلك العبارة:

بعد الأمسية التقيا في ذلك الشارع المزدحم..

ولكنها كانت ترتدي ذلك البنطال اللعين من الجينز، وتلك السترة البيضاء والبلوزة الحمراء الضيقة، كأنها رتبتْ المصادفة ففاجأته ثانية بكامل فتنتها.

لم يسألها عن أسمها.. وعندما سمع الناس ينادونها به، تناساه تماماً.

نعم.. تلك العبارة.

كانا قد استرقا الخطى وابتعدا في الشوارع الشجرية حول النادي.

قالت له: فوجئت في الشارع كثيراً.

لم يدر إن كانت تقر حقيقة أم تسأل.

توغلا في الشارع أكثر.. صمتت.. توقفت ونظرت في عينيه: ماذا قلت حينها؟ أخيراً وجد القدرة في نفسه، فتحدث كما لو أنه يكتب قصة!

: قلت هذه المرأة حين أراها، الجم رغبتي بقوة عجيبة كي لا أندفع وأعانقها حتى في الشارع العام.

تلك العبارة فجرت فتنتها كاملة، دارت نصف دورة.. قالت:

- البنات مجنونات.

كيف؟

- فقط مجنونات.

واقتربت.. شدته إلى صدرها.

التفت حوله، كانا في الشارع العام.. شارع فرعي.. غبش الساعات الأخيرة من النهار اختطف جسديهما.. وخبأهما. ولكن ليس إلى تلك الدرجة التي لا يعودان فيها مرئيين.

طارت به إلى طرف الرصيف.. دفعته باتجاه ياسمينة مجنونة معرِّشة على أحد الأسوار.. واختفت به هناك.

* * *

صعدَ أحمد الصافي..

قال لها: هذا حقي.. إن الشيء الأهم من كل ذلك أنني لم أتغير. وفرحت هي.. حين غادرت تلك «الحظيرة» بلا عودة. وطفا على روحها توق كانت تحاول أن تتناساه. ولم تخف ذلك عندما أخبرها أنه أصبح الآن من أصحاب المناصب.

* * *

هذه المدينة ستبقى قرية مهما اتسعت.. ستبقى قرية مهما استعارت من مظاهر المدن الكبيرة، وعنزة ولو طارت.

صعدتْ من جوانب الأودية إلى رؤوس التلال.. وظلت تصعد حتى لم تعد تَرى القاع.. ولكي لا تمرّ به فيذكرها بشيء.. مَنَّ الله عليها.. فلم تعد الينابيع تتفجر فضمرتْ السيول.. ولم يبق سوى مياه المجاري المندفعة بيسر لتحتل مواقع الينابيع.. وتتفجر هناك نتناً.. وهكذا كان هناك ما يبرر دفن الأودية.. وعلى الرغم من أن كلَّ شيء تغيَّر الآن.. إلا أنها كما يقولون «إن خليت بليت..» فثمة كثيرون لم يستطيعوا صعود التلال.. هَرِم بعضهم.. ومات آخرون.. وولد جيل جديد يحفظ سيرةَ الينابيع.. ويفتش عنها.

* * *

هذه المدينة ستبقى قرية مهما اتسعت.

نبحَ أحد الكلاب في حديقة الجنرال الواسعة.. تذكر الكلب في شرفة بيته الجديد.. وتذكر أحمد الصافي.

في تلك اللحظة بالذات التي كانت عربة أحمد الصافي تمرّ فيها تحت أضواء أسوار الجنرال وعيون بنادق الحرس وهو عائد من الصحيفة.

قال: هذا الغبي.. صدّقَ أخيراً أن استدعاءه سيستمر بصورة يومية إلى الأبد.. كنا نعرف جيداً أصله وفصله: ونعرف أننا نتعامل مع

كاتب مدجج بحضوره الفارغ.. ولكن كان يجب أن نلتقي وإياه في منتصف الطريق.. لقد نما هكذا.. فجأة.. في غفلة منّا.. وإلا لكنا قصصنا رقبتَه منذ البداية.. والآن.. من يذكر أحمد الصافي كاتب القصص.. نحن لم نحيِّده فقط.. بل هو ابننا.

* * *

في تلك الليلة من آب أحضروا لنا شابين.. وقعا في أحد كمائننا المتقدمة.. قادمين من «إسرائيل» دخلت عليهما بعد أن حظيا بوجبة دسمة.. لفت انتباهي وجود قصاصة من جريدة على الطاولة. فتحتها.. قصة قصيرة.

قصة قصيرة؟
ضحكتُ.. «طفلُ الليلة الطويلة».

شرح لي مساعدي الخاص أنه وجدها في سترته.
قلت: ما هذا؟.
قال: ما تراه.

عندها إنهال عليه أحد مساعديّ ضرباً.. لم يعد بعدها قادراً على الوقوف.. رفع وجهه بطرف الحذاء.. فأعدت السؤال:

: ما هذا؟
قال: ما تراه.

قلت: يجب أن أكسره.. حطمنا صاحبه الجريح أمامه.. وعندما اكتشفنا أننا بالغنا في ذلك أخذناه إلى غرفة أخرى. ولم نستطع كسره.

كان أصغر من أن يَحتمل ضربةً واحدة.. قلت:

لا يقبل الحديث عن قصة في جيبه.. معنى ذلك أننا لن نستطيع انتزاع المعلومات الأخطر المتعلقة بمهمته، بقطعة السلاح.. مصدرها..

الليل يوغل في بحرهِ.. هذا الليل الذي أُشكِّله كما أشاء.. أسرةً

او مشانقَ.. احلاماً او كوابيس.. هو الليل لي.. أبسطه أمامي بعيون حراسي.. فأرى ظلمته العارية بكامل فضيحتها.

تناهت إلينا صرخات بعض المعتقلين في أقسام أخرى.. منقوعين في السياط.. التفتُّ إلى وجه معتقلنا الجديد.. كان بريئاً إلى درجة لا تُصدَّق..

سألته:

كم عمرك. تبدو صغيراً..

لم يُجب.

قلت: هل كنت تحمل بندقيتك أم كان رفيقك البغل يحملها عنك.

ضحكتُ حتى اهتز كل عضو مني فارتخيت. وظل جامداً مقدوداً من صخرة، وإن كانت وردية.

دخل أحد المحققين.. سألت: كيف حال الآخر..

اقترب مني همس في إذني: وضعه صعب.

قلت: لا عليك.

عاد ليهمس: كنا نعتقد أنه يحتمل..

ــ قلت: لا عليك

قلت: أيها الولد.. أُحب أن أُذكرك.. لا أحد يعرف أنك في قبضتنا الآن.. من الممكن أن تكون قطعتَ الحدود.. وقمت بالعملية وبعدها اختفيت.. بمعنى أن دمك موزَّع بيننا وبين الجيش الإسرائيلي والطبيعة المتوحشة.

ظل صامتاً..

تذكّرتُ القصة الملقاة على الطاولة:

لعل صاحبك كان يطلق الرصاصَ.. وأنت كان سلاحك هذه القصة.. كم كلمة أطلقت.. ها.. كم كلمة. الذين أرسلوك أعطوك فعلاً السلاح المناسب لك. هأ.. هأ.. هأ.

هل اقتحمت قيادة الجيش الاسرائيلي بهذه.. أم كان عليك أن

تُؤمِّنَ انسحاب رفيقك بها.. كنت فرقة المساندة إذن. ولهذا أُصيب البغل.. لأن ظهره كان عارياً.

التقطت القصة.. كانت على وشك أن تذوب.. لقد أُستخدمت كثيراً.. «طفل الليلة الطويلة» قصة بقلم أحمد الصافي.

التفتّ إلى المحققين.. من أحمد الصافي هذا؟!

: كاتب نَكِرة ليس أكثر سيدي.. أجاب أحدهم.

تكتلت قبضة المعتقل الصغيرة.. رأيت الغضب شرراً فيها.

قلت في نفسي: يغضب لهذه الدرجة..

خرجتُ..

أريد نتائج في الصباح.

وحملت قصاصة الجريدة البالية ومضيت.

* * *

في الصباح استدعيت أحد رجالي قلتُ: احضروا هذا الأحمد العكر.. حتى لو كان تحت الأرض.

خرجَ مبتهجاً.. فأدركت بعد ذلك أن السبب هو عدم سؤالي له عن نتائج التحقيق.

* * *

الأستاذ أحمد الصافي المحترم

تحية طيبة

.. أنا «طفل الليلة الطويلة»، إن هذه الروح المتفجرة هي ما يربطني بك، كما أشعر أن الغضب يوحدنا.. قرأت قصصك كلّها.. حتى تلك التي لم تكتبها.. وأحببت أن أراك دائماً لأقول لك الكثير.. عني.. وعنك ربما.. أحببت أن أقول لك.. إنني أنا طفل الليلة الطويلة.. وإنني غير قابل للموت.

إليك يا من تعلو كلمتك حتى يسمعها الجنين داخل الرحم ويطالب بالولادة.. قلما نجد من يعبر عن أوجاعه ـ أوجاعنا.. أحاسيسه ـ أحاسيسنا بصدق وإبداع مثلك.. لقد استطعت بكل إعجاز أن تجعل اللغة كالنبع يجري عبر حقولنا بلا حواجز.

أقف أمامك لأقول: لقد استطعتَ أن تحطم خوفنا.. وتجدد فينا مستقبلنا.. ولم تعد الكلمة الشجاعة سجينة بين الضلوع.. لقد وجدت امتدادها في الناس.

إنك لنا.. ابداعنا من أول قصة كتبتها حتى القصة التي لم تكتبها بعد.. من «عيون الصقر» مجموعتك الأولى حتى «قامة الرمح» مجموعتك الأخيرة..

أستاذي الكريم.

محبتي لك..

وأجدد القول: أنا «طفل الليلة الطويلة».. وقريباً سأتجاوز كل شيء لأكون.. طفل قصتك.. إبداعك.

فانتظرني

المخلص

ـ سعد ـ

* * *

انتشرت سحبُ الدخان في قاعة النادي الثقافي.. الأمسية انتهتْ.. تدافعت الكلمات تبحث عن معناها وهي تعلن انبهارها بالقصص المقروءة..

فتيات.. سيدات.. كتاب وطلبة.. احتشدوا في ذلك الشريط الضيق المدعو (قاعة).. وعندما انتشروا في نهاية الأمسية كانوا يملأون الشارع والشرفة.

من يصدق.. إن قاعة صغيرة يمكن أن تتسع لكل هذا الانبهار.. تحول الناس يومها إلى سحابة خضراء. يعرف كيف يبدأ القصة.. يعرف كيف يشدك من قلبك نحوها.. ويعرف كيف يمنحها أجنحة.

تمايلت اللوحة الجانبية الوحيدة المعلقة في الممر.. بفعل ارتطام أكتاف الجمهور بها أكثر من مرة.

كان الطائر يقف على مسند الكرسي.. وعلى الرغم من أن أجنحته مضمومة إلى جسده برفق.. مثلما تفعل كل الطيور.. إلا أن الناظر إليه كان يرى الخفقان السريّ لتلك الأجنحة.. الطائر ضام جناحيه.. ولكنه مُحلق، الأفق حوله كحلي مائل للسواد. ولكن انبثاق لون الطائر في منتصف اللوحة. والضوء الخجول المنعكس من أجنحته على المسند والظل الممتد لجسده الصغير على أرضية المكان.. تؤكد الإحساس بالطيران، نعم في الظل تلمح خفقة جناحيه أكثر وضوحاً.

بسيطٌ.. للوهلة الأولى.. تألفه.. على الرغم من أنك لم تشاهد طيراً

مثله.. فجأة ستدرك السبب. إن ما فيه يذكرك بملامح طيور البلاد كلّها.

اقترب الفتى منه بخجل.. شقَّ الصفوف. مرة أو اثنتين فكر أن يبتعد.. وكلما تجاوزَ جسداً أو ارتطم كتفه بكتف سيدة تفصد جبينه عرقاً.. مسافة بسيطة.. طالما تردد في قطعها.. وفي أكثر من أُمسية.. رغم أنه قادر على اجتياز ما هو أخطر منها.. هكذا دائماً كان يحس. وفي كل مرة. كلما حاول الإقتراب.. تذكر أنه لم يتعود أن يرى شاعراً أو كاتباً أمامه.. دائماً كان يراهم يسمعهم يتخيلهم في كتب المدرسة. .كيف.. كيف إذن يرى كاتباً بلحمه ودمه على الأرض وأنه وإياه تحت سقف واحد!!

في يده كانت الرسالة.. همس: مرحبا.

لم تُسمع وسط هذا الهدير المتصاعد للحروف المتقاطعة التي يصعب تجميعها في كلمة واحدة.. اقترب أكثر.. أصبح بجانبه تماماً. إذا قال مرحباً هذه المرة ولم يسمعه أحد.. لن يعود إلى قولها ثانية أبداً، انصبت حواسه كلها باتجاه الكلمات التي ينطقها كاتبه.. كانت الأصوات قد تلاشت.. لم يبق غير صوته..

قال للفتاة التي كانت تمدّ له دفتراً في يدها وتطلب منه أن يوقع لها وقد احمر وجهه: أنا واحد منكم.. لا أستطيع أن أفعل ذلك.. لست نجماً.. مجرد إنسان أنا.. أخ.. صديق.. ومعكم دائماً.

جاء دورها الآن.. احمر وجهها.. فأوقعه في حيرة.. كتب لها كلمات طيبة ومهرها بتوقيعه.. وكان أشد حرجاً منها بعد سماع كلماته.

عند ذلك ضغط الفتى الورقة القابعة بين أصابعه مثل عصفور عار.. وللحظة فكر أن يعود.. ولكنه أحس أنه قد لا يراه مرةً ثانيةً.. ثم أنه لا يطلب توقيعه.

استاذ أحمد.

التفتَ إليه.

أنا «طفل الليلة الطويلة».

ناوله الورقة واختفى في الزحام.

همس أحمد لنفسه: «طفل الليلة الطويلة».. كل هذا الخجل؟ همَّ أن يوقفه.. إلا أنه كان قد أبتعد.. مخلفاً مسحةَ الخجل الوردية وملامحه الصغيرة في العينين.

* * *

مدينة عجيبة لعلها الوحيدة في العالم التي تنام في السابعة.. للرصاص صدى في امتداداتها.. وفي واجهات البيوت.. حيث تتطاير الحجارة فتاتاً.. وينهار زجاج النوافذ.

مدينة في اليوم العاشر هذه هي المأساة.. وأطلّ السؤال الذي يحزّ قلبَهُ: هل يلزمنا عشرة أيام للعودة بها نحو صهيلها.. يدرك الآن أن ما حدث للنمور في عشرة أيام.. حدث للمدينة في عشر سنوات.. خوف يربض في الزوايا.. رائحة جثث.. شهداء يتخندقون بطيفهم.. متربصين للانقضاض على خطوات الصمت.. ودوائر النسيان.. من ينسى؟. المدينة لا تنسى.. ترفع جدرانها.. بناياتها وتبتلع المساحات الخضراء والحمراء.. تنطلق الشوارع مبددة التصاق بيوتها الطيبة.. يبتعد البشر عن أحلام بعضهم.. يغرقون في أحلامهم.. تستيقظ شهوة التعويض فيهم.. يفتقدون البنادق.. يغوصون.. يُعمّرون بيوتاً جديدة ويزرعون الدوالي والدفلى على أبوابها.. ويجيء المساء.. يختفون في جحورهم.. يتأخر واحد من أبنائهم تقوم القيامة وراء الجدران: هل تعتقد أن هذه الدنيا لنا.. لتظل متسكعاً في شوارعها حتى الآن.

تتزاحم البيوت تفترق.. وفي الجانب الآخر من المدينة حيث تغرب الشمس.. أو تُعتقل هناك، لا فرق..، عالم آخر.. يقطعه أحمد الصافي من قاعة النادي الثقافي إلى باب بيته..

لم يعد يسمع سوى إيقاع خطواته.. رتيبة تشق الهدوء.. تستعيده من رحيله.. أو تطلقه في أحزان جديدة.

تتفجر رائحة الأرض مختلطة بدماء قديمة.. داعية البذور للأعراس كلما شقت فلاحة باب بيتها ودلقت مياه الاستحمام في الشوارع على

استحياء.. هذه المياه التي تحمل الطهارة وما علق بالأجساد من عرق وغبار وما لم يجد طريقه ليكون بشراً من ماء الرجال.. وشهوة النسوة..

كان يشم رائحة الأرض.. ويبتهج وهو يرى خجلاً طائراً.. يفلت من ملامح فلاحة فوجئت بمروره عبر الزقاق..

كان يستحث خطاه
ويستحث البذور.

* * *

قرع الباب.. فجأة آلمه أن فتنة لم تحضر الأمسية.
- من يرعى الولد في هذه الزريبة؟
هكذا قالت شبه صارخة. هكذا تقول دائماً وتترك السؤال معلقاً.

ابتلع كلمة الزريبة: ولكنك لم تحضري الأمسيات إلا مرات قليلة حتى قبل قدوم الولد.

: كنت حاملاً.

أدركت أن الحوار يقود إلى صراخ.. كانت تخشى استيقاظ الولد.. ثلاث سنوات ونصف السنة.. عمره الآن، قالت: لا تغضب.. فأنا أعيش قصصك معك.. ولكن فلتعترف.. لقد تغيرت.

- لأنك ترينني الآن عن قرب.

لم تفهم في البداية.. استلها صوت الصغير.. هكذا يحاولان دائماً حشر حوارهما في دائرة الهدوء.. يتصاعد ويقترب من الانفجار.. ثم يؤجله صراخ الصغير.. بؤرة أخرى تتركز فيها حواسهما.. فيتجاوزان البركان.

* * *

- من يمتلك القدرة على إسكات طائر.
- أنا.
جاءت كلمة أنا كبيرة حقاً بحجم التسلط.
قال: تقتله؟

: إحدى الوسائل.

أدرك «الأنيق» أن الحوار مضى في غير ما يريد: نحتاجه حياً لا ميتاً.. حياً في أقفاصنا.

* * *

قال الجنرال: هل أحرزتم أي تقدم مع أحمد العكر هذا؟

قال الأنيق: عنيد.

قال الجنرال: لا بأس.. حولوه لي.

هتف الأنيق: لك؟!

* * *

كانت التقارير السريعة قد أكدت أن أحمد الصافي أكبر مما يتصور الجنرال، وفي اليومين التاليين حين كان الجنرال ينتظر حضوره.. أعاد قراءة ثلاثين مقالاً من مقالاته المنشورة خلال تموز الماضي.

لم يجد بعدها سوى كلمة واحدة لوصفه: مُتَنَمِّر.

* * *

لم يحضر في الزمن الذي كان الجنرال يريد حضوره فيه.. فكر بإرسال مجموعة من حراسه لاعتقاله، بصفته شريكاً في التحريض.. للقيام بعملية عسكرية غير مشروعة، عبر الأراضي الواقعة تحت سلطته دون الحصول على إذن بذلك.. ولكنه أحجم عن القيام بذلك في اللحظة الأخيرة.

: إن تقديمه لمحكمة عسكرية بتهمة كهذه.. سيجعلنا أضحوكة في الصحافة الغربية، وسنجعل منه بطلاً.

كان يخشاها.. يخشاها وحدها.. أما تلك الصحف والمجلات العربية المنتشرة في كل عواصم الخاربة أو المُعمّرة.. فلم يكن يهمه أمرها..

: نعم.. المساس بي في عاصمة عربية هو مساس بكل الجنرالات..

ولا أحد يقبل به.. أما تلك المجلات والصحف المتنمرة فعددها قليل. ولا يقرؤها سوى واحد بالألف من أمثال أحمد الصافي.

* * *

حضر مساعده الخاص.

: سيدي.. الصافي حاضر.

: قلت لك العكر.. صرخ.

: إنه حاضر. استدرك.

: من؟

العكر.. سيدي.

* * *

فوجيء تماماً حين دخل.. كان يعد نفسه لكل شيء إلّا لشيء واحد لم يكن يتصوره، أن يكون هكذا وجهاً لوجه مع الجنرال هذه المرة.

- ارتبك.

- تفضل. خطا الجنرال باتجاهه.. صافحه..

: الأمور الحساسة أُحب أن أقوم بها بنفسي.. هكذا.. دائماً.. ثم أن شخصية معروفة مثلك لا نتركها لصغار المحققين!!

: تفضل هنا.. أستاذ أحمد.. الرجال الكبار لا يقدرهم سوى الرجال الكبار وأعتذر لك إن كان أحد أساء التصرف معك.. كنت أود أن أراك من البداية ولكن أنت تعرف.. المسؤولية.

ظلت الدهشة تعبث بملامح أحمد الصافي..

: ها أنت تقف وجهاً لوجه مع شخص يمثل لك الموت.. الموت يبتسم.. يأخذ مقعده.. يخيّرك: أن تشرب شاياً أو قهوة..

تعتذر شكراً.

يناولك سيجارة.

تعتذر.. شكراً.

الموت يقول لك: على راحتك..

ديموقراطية الرصاصة المنطلقة.. الفضاء المُعَلَّقُ بين قضبان زنزانة.. صراخ مدوٍ في ساحة تعذيب.. مسافة بيضاء فاصلة بين الجسد وتأرجح الروح قبل انقضاض الأنشوطة..

: من زمن كنا نحب أن نراك.. بصدق أقول لك: فرصة سعيدة.. إنني من قرائك.. أستطيع مثلاً أن أعيد عليك قراءة فقرات طويلة من مقالاتك.

بدأ بتعداد عناوين المقالات المنشورة خلال تموز. فوجيء أحمد الصافي أكثر.. وحين بدأ الجنرال بتجاوز العناوين للدخول إلى ما هو أكبر منها: كان أحمد الصافي فريسة الدهشة. سرّه أن كلمته تصل!! لم تكن في الفراغ.. وإن الجنرالات يقرأون كل كبيرة وصغيرة.

تلا مقاطع من مقالات كان يخيل لأحمد الصافي أنها كُتبتْ منذ قرن.

كان يبتعد عن صوت الجنرال في احتمالات متضاربة.. اليوم يوم المفاجأة.

تنبه أن الجنرال يوجه الكلام إليه: أُلاحظ.. أستاذ أحمد.. من مقالاتك أنك تقع فيما يقع فيه غيرك من كتابنا الذين نحترمهم.. وهذا له سبب واحد في اعتقادي: إنكم تتخيلوننا عن بعد.. في حين أننا أقرب اليكم مما تتصورون.

...

: على كل.. أنا سعيد بمعرفتك.. سعيد جداً.

وقف الجنرال معلناً انتهاء المقابلة..

صافح أحمد الصافي..

: فرصة سعيدة.

: شكراً.

* * *

عبر الممرات.. جاب كل خلايا دماغه.. عروق دمه.. باحثاً عن معنى

واحد لهذه المقابلة.. كلّ حساباته واستعدادته غرقت في البحر.. بل في المستنقع..

يبدأ الحوار.. وينتهي حول مقالاته.. رغم أن قصصه هي الأخطر.. ماذا لو سأله عن «طفل الليلة الطويلة» ومن هم جنرالات تلك الليلة..

: تذهب وأنت ترسم صورةً تقليدية ما لمحقق ما.. فإذا بك أمام الجنرال مباشرة. وفوق ذلك.. يتحدث ويتحدث ويقرأ مقالات لك ربما بأكملها.. ولا يدعك تنطق سوى كلمة واحدة.

«شكراً». ترددها ثلاث مرات وتمضي. يعلن إعجابه بمقالاتك اليومية. من قال إنه لا يقرأ الصحف؟. ولكنه يقفز عن أهم ما فيك:

قصصك.. إبداعك..

يقرأون ما يريدون. هل في الأمر مصادفة.. لا .. لا يمكن أن يكون قارىء مقالات إلى هذا الحد ولا يعرف شيئاً عن القصص. هل تحمل هذه المقابلة رسالة خفية..: هم أكثر ذكاء مما كنا نعتقد.. ألم يقنعونا بأن النصر يدق أبوابنا.. وليس لنا إلا أن نقوم ونسير معه أكثر من مرة.. ثم حطمت الهزائم أبوابنا في كل مرة.. أذكياء.. وإلا كيف استطاعوا أن يقودوا البشر إلى المسالخ كالنعاج كل هذا الزمن.

نعم.. هذه المقابلة تحمل في طياتها شيئاً واحداً له معنى: أنهم يلغونني كقاص.

تجاوز البوابة الحديدية المدججة بالجنود.. غاص في بحر الناس، عبر صدرَهُ هواء مضيء.. لم يبتهج أبداً مثل الآن إنه موجة في بحر الناس.. ولم تعبر صدره نسمة كهذه..

اتسعت أضلاعه.. رئتاه.. وانبسط الشارع أمامه يومَ حريةٍ..

* * *

استغرق تماماً في مقاله.. تصبب عرقاً.. هكذا حين يكتب، يكتب بكل مسامات جلده.. بكل حواسه.. يحس أنه يركض.. يسابق الكلمات..

يندفع خلفها.. ثم يتنفس بعمق.. لا يعيد كتابة المقال.. يدفعه للمراسل الذي يحمله لرئيس التحرير. أو يذهب بنفسه أحياناً حين يتوقع أن في المقال ما يمكن أن يستثير المقص.

ضغط مفتاح الجرس.. حضر المراسل.. تناول المقال.. اختفى.. قفزت إلى مخيلته صورة الجنرال يقرأ المقال صباحاً ويهزُّ رأسه.. وهو يتابع الكلمات عبر السطور بنظراته وصولجانه..

: كتبتُ كما يجب أن أكتب كل يوم.. وابتسم لأن صورة الجنرال لم تعبر مخيلته إلا بعد كتابة المقال..

رن جرس الهاتف: تناول لسماعة.

: معك.. مكتب الجنرال.. نريدك صباح غد.

أغلق الخط.. أعاد السماعة..

هل بدأت المقابلة تأخذ معناها الآن.

تذكر ما كتبه.. تمنى أن تكون لديه مسودة.. فكر بطلب المقال من رئيس التحرير..

نهض مسرعاً..

: إذا سمحت.. هل يمكنني تصفح المقال. أخشى أنني وقعت في خطأ ما..

اطمئنْ المقال جيد.. لقد أرسلته إلى المطبعة..

: شكراً..

خرج من مكتب رئيس التحرير.. غادر مبنى الجريدة.

صفرة الموت تندفع في الشوارع.. عبور العربات الطائـرة يشق الأوتستراد.. يتجاوز الجزيرة إلى الرصيف المقابل.. يندس في حافلة فارغة توقف سائقها في اللحظة الأخيرة بعيداً عنه.. ربما بعد أن هزّه ضميره.. وفكر في أن يحمله أو يتركه.. وتذكر أخيراً أنها الحافلة الأخيرة.. الساعة تقترب من التاسعة..

* * *

انتظر حتى الثانية في قاعة الصمت الممتلئة بالناس.. كأنه لم يبق أحد في الخارج إلا وزُجَّ به هنا.. العيون تحدق في الملامح الحاضرة. والصمت يأخذ امتدادَهُ.. أصفر.. مترقباً، كثيرون قرأوا الجرائد عن آخرها.. دون أن يسمعوا أسماءهم عبر السماعة..

لمح أحد الشيوخ يقرأ الصحيفة التي يعمل بها.. قلب الشيخ الصفحة: هو الآن وجهاً لوجه مع مقاله.. تردد قليلاً ثم بدأ بقراءته..

حاول الوصول إلى معنى ما من خلال مراقبته لملامح الشيخ.. فاكتشف أنه يفكر في بياض شعر لحيته وشاربه. وخصل متناثرة من شعر رأسه تتسلل بيضاء من تحت الغطاء الأبيض.. وقت لزج ينساب في العروق.. لُزوجة في الأصابع.. في الصوت المتدفق من الساعة.. من وجوه العاملين في هذا المكان المغلق.. الخانق.

فرق كبير بين اليوم والأمس..

دورة الوقت تجاوزت الثانية ظهراً.. لم يبق كثير من الناس.. سمع اسمه في السماعة وكان يراقب خط سير البشر عند انطلاق أسمائهم.. تبع الصوت إلى الخارج..

هناك: ناولوه ورقة صغيرة..

: الساعة الثامنة صباح غد..

الآن بدأت اللعبة.. هتف لنفسه وهو يتناول بطاقة هويته من موظف الاستعلامات ويغوص في الشوارع ثانية..

الظهيرة قاطعة.. والوجوه مليئة بالضجر..

* * *

«على الرغم من أن صفحات جرائدنا اليومية مُشْرَعةٌ دوماً لنشر خطط الوزارات والدوائر والمؤسسات الرسمية والشعبية أيضاً.

وعلى الرغم من أن كل خطوة يقوم بها مسؤول ما.. تعمل الصحافة على تغطيتها بالخبر والصورة. مهما كانت هذه الخطوة كبيرة أو صغيرة.

وعلى الرغم من كل ذلك، نجد أن المسؤولين يتمتعون بحساسية مفرطةٍ تفوق حساسية الشعراء وكبار الفنانات تجاه أي انتقاد يوجه إلى وزاراتهم أو دوائرهم، وكأن كل من يعمل في هذا الجهاز معصوم عن الخطأ.. وكأن الجهاز نفسه ليس أكثرَ من إقطاعية خاصة.

قبل أيام قام أحد متصرفي مدننا بإلقاء القبض على مندوب صحيفة محلية وأودعه السجن لأنه قام بالكتابة لصحيفته حول وعورة الشوارع في مدينته!!

وفي حالات كثيرة، ما أن يشم المسؤول رائحة كتابة سلبية! حول مشاريعه، ستنشر في إحدى الصحف، حتى يهب لتطويق الموضوع ومنع النشر..

المشكلة أنه يراد من الصحفي أن يكون طبالاً في مجموعة من الطبالين.. الذين يحلو لبعض مسؤولينا وجودهم بصورة دائمة حولهم.. يزيّنون الباطل ويمحقون الحق.

وتتعدى المسألة الصحفي تلقائياً.. ليكون المطلوب صحافة طيعة مخبوعة لا يُحتمل وجود جملة جامحة واحدة بين سطورها..

وما لم يتحول مفهوم المسؤولية إلى مفهوم بناء جماعي يهدف إلى خدمة الناس ـ لا ستر العورات والتستر على الفضائح للبقاء أكثر فترة ممكنة على كرسي المؤسسة ـ ما لم يحدث ذلك سيبقى النظر إلى المنصب كإقطاعية.. المسُّ بها تعرض شخصي جارح لصاحب هذا المنصب أو ذاك».

«أحمد الصافي».

فكر باختيار عنوان ملائم.. أعاد قراءة المقال.. توقف في منتصفه..

صعد بالقلم إلى رأس الصفحة.. كتب:

المؤسسات الرسمية. والإقطاعيات.

وأكمل قراءة المقال..

استند إلى ظهر الكرسي.. تنفس.. هو الآن حرّ من الوظيفة.. ما تبقى من وقت سيكون له.. له وحده..

رنّ جرس الهاتف.

رفع السماعة..

: آلو.. مكتب الجنرال معك.. لا تنس موعدالغد.. الحضور في الساعة السابعة بدل الثامنة!!

لقد حاول أن يُبعدَ الجنرال، أن يسحبه من دمه ويلقي به بعيداً عند كتابة المقال.. وهكذا كان.. إلا أنه يعود ويحتل بقية الساعات الواصلة بين هذه اللحظة وصباح الغد.. وما تبقى من وقت لن يكون له.. لن يكون له وحده.

: ما الذي يريدونه.. ما أحس به أُطلقه عبر الحبر في رسائل صباحية موجهة إلى كل الناس.. ليس ثمة أسرار في داخلي.. ليس لدي أكثر مما أقوله في المقال.

المقال.. ارتجف.

بدأ بقراءته من جديد.. هذه هي المرة الأولى التي يحصل فيها ذلك.. توقف عند أكثر من جملة.. أعاد قراءته ثانية.. فوجيء بالعنوان، تناول القلم.. تقاطعت الخطوط اختفى العنوان.. كتب: «صحافة المسؤول.. مسؤولية الصحافة» أعاد شطب العنوان الجديد كتب.. «الصحافة والمسؤول» اندفع عبر السطور اجتاحت خطوط الفوضى الكلمات فبدأت تختفي تحت بقع من الحبر الأسود.. تكاثرت البُقع.. اختفت «بحق وبغير حق» «الناجحة أو الساقطة» «في محاولة لستر عورتها».. «كبار الفنانات»... بقع سوداء «إقطاعية».. «الحق».. «الباطل».. بقع سوداء سوداء..

لم يجرؤ على قراءة المقال ثانية.. استدعى المراسل حمله إلى رئيس التحرير.. خرج مسرعاً.. تلفت خلفه.. كانت الكلمات التي اختنقت بين السطور تصدر أصواتاً موجعة.. تدفع الحبرَ محاولةً الوصول إلى الهواء دون جدوى، ثم جمّعتْ حروفها في صرخة واحدة.. لم يستطع الهرب منها حتى حينما أغلق أذنيه..

توقف.. هم بالعودة.. لكنه أدرك أن الجريمة تمت، وأن الميت شبع موتاً..

: عبرتْ كتلة هواء شرسة بفعل مرور شاحنة مسرعة.. صفعتْ وجهه.. كان مشدوهاً.. لم يعرف كيف قطعَ المسرب الأول للأوتستراد.. كانت آخر الحافلات قد أنهت عملها منذ ساعة.. الشوارع موحشة.. رغم الأضواء المنتشرة.. الشوارعُ جثةٌ.. يبددون الفزعَ المتدفقَ من أطرافها.. فيصلبونها تحت الأضواء.

* * *

في غرفته كان يجلس.. فتنة وجدها نائمة وكذلك الصغير.. تسلل أخذ مقعده خلف الطاولة.. حاول تهدئة نفسه.

قال: لو كان المقال قصة لاختلف الأمر.. مجرد مقال يومي.. حِرْفَة لأكل الخبز.. كان يمكن أن يكون الأمر خطيراً لو أنني كتبتُ ما لا أريد..

أنا لم أفعل ذلك.. نعم لو كانت قصة لاختلف الأمر.. لو كانت قصة لاختلف الأمر.. ولكنه مجرد مقال...

ـ ولكن الكلمات.. كلمات.. والصدق نفس الصدق سواء قلته شِعراً أو قصة أو مقالاً أو هُتافاً..

عرف مصدر الصوت.. كان صوته.. صوته هو.

المكتبة أمامه.. رفوف من الكتب التي أحبها.. التي أمضى سنوات في انتقائها.. كل منها يشكل قطرة من دمه.. والمكتبة خلفه.. في الوسط كان يجلس.. في أكثر الأماكن قرباً إلى روحه..

غارقاً في بحر من الأسئلة كان.. تنبه فجأة سمع صوتاً ما.. غريباً، مثل ارتطام قدمي عصفور بأوراق توتٍ جافة.. بحث عن مصدر الصوت.. كان قادماً من الرفوف المواجهة له.. لم يتوصل إلى شيء.. عادت الأسئلة تنقر نبضاته والهواء المضغوط في رئتيه.. حين ازداد الصوتُ الغريب عُلواً.

شاهدَ واحداً من الكتب على الرف العلوي يُفتح من تلقاء نفسهِ.. وتندفع كائنات سوداء منه.. ببطء.. شبيه بخروج فرخ من بيضة.. اتسعت عيناه.. كتابٌ آخر في رف آخر.. بدأ ينشق اندفعت كائنات سوداء منه.. تجمَّد في مكانه.. سقطتْ قطراتٌ من الحبر من الصفحات البيضاء المُشرعة.. تجاوزتْ خشبَ الرفوف استقرتْ على أرضية الغرفة.. حاول أن يقف.. إلّا أن شيئاً ما شدّهُ إلى مكانه بقوة سحرية.. مشدوداً إلى الكرسي كان.. سمع صوتاً خلفه.. بجهد.. استطاع أن يلوي عُنُقَهُ.. رأى كتاباً ينشقّ.. ويتبعه آخر.. وآخر.. والكائنات السوداء تنطلق من الصحفات مُخلِّفةً بياضاً مُفْزِعاً.. قنوات صغيرة من الحبر بدأت تخرج شاقةً صفحاتِ الكتب.. جداول من السواد تنبع من الصفحات تُخلِّفها باردةً كالكفن.. يزداد صوت الجداول عُلواً.. يسفر عن صرخاتٍ متقاطعة.. الصوتُ يقترب.. جداول.. تلتقي تتحول إلى موجاتٍ تتفجر من الدفاتر الملقاة أمامه.. من الأقلام.. والمحابر.. شلالات من الحبر الأسود الأسود تندفع من الرفوف العليا دون توقف.. تصطخب على أرضية الغرفة

موجاً.. ترتفع.. يحاول أن يصرخ.. الشلالات تندفع أكثر وأكثر.. الكتبُ تُلقي بكلٍّ ما فيها.. يحاول التمسكَ بالطاولة الخشبية أمامَهُ.. تطفو.. تبتعد.. تصطدم بإحدى الزوايا تستقر هناك.. يزحف الحبرُ باتجاه صدره صاعداً.. تتدفق شلالاتُ الحبر.. أكثر. يختفي في البحيرة السوداء.. يصعد من جديد.. يلهث..

لم يعد قادراً على إغلاق فمه. يستجدي آخر ما تبقى من هواء.. تندفع الأمواج عبر فمه.. يسقط على الأرض.. فمه مُشْرَعٌ للموج الأسود الذي يبدأ بالاختفاء داخله.. في حين يأخذ جسده بالانتفاخ شيئاً فشيئاً.. تتساقط الكتب حوله بيضاء.. مشرعة صفحاتها.

تختفي بحيرة الحبر في داخله مُخلِّفة زبداً لَزِجاً على أطراف فمه..

يحاول الصراخ.. دون جدوى.

* * *

هبط الجنرال الدرجات المؤدية إلى القبو.. بعد أن غادر المصعد الذي ينتهي في الطابق الأرضي.. ظلامُ القبو شاحب، تزيده الأضواءُ المثبتة على الجانب الأيمن للممر الطويل شحوباً.. جداران داكنان يندفعان.. كأنما إلى مقبرة، حيث تختفي النقطة الأخيرة مختلطة مع الكحلي الميت، لتعطي انطباعاً أن القبو متاهة يلتصق آخرها بأولها متفرِّعَةً عن زنازين في الجانبين بطلّاقات صغيرة.. كائنات بأعين واحدة متشابهة.. تحدق في القادمين بِشَرَهٍ بالغ، مُجمِّعةًكل قوة العين الثانية التي تملكها الكائنات الحية في العين الوحيدة الباقية حيث تنسدل القضبانُ الضيقة رموشاً معدنية لمشهد معدني.

الحرس يتجاوزون الجنرال في اللحظة الأخيرة يندفعون إلى باب غرفة التحقيق يفتحونها بحركة ماهرة إعتادوا عليها..

ينفجر الضوء مُعلناً موتَ المشهد الخارجي وانسحاقه، ومسفراً عن موت أكثر وضوحاً في الجسدِ الذي يتأرجح في سقف الغرفة على شكل صليب صغير بلا تفاصيل.

كان الاقتراب من الصليب البشري يزيد المشهدَ غموضاً حيث تختفي الملامح خلف خطوط متقاطعة لدماء وجروح تحتل أبعاد الجسد المُعلّق..

صرخ الجنرال.. تلك الصرخة حين يأخذ دور الأب الحاني.

: ما الذي تفعلونه.. حلوا وثاقه.. شابٌ بهذه الطيبة.. تدارك.. طفل بهذه الطيبة لا يجوز استخدام أساليب سيئة إلى هذا الحد معه.

يجمع الجسد المتأرجح قوته.. وكأنه يحاول عكس مجرى سيول الدماء الصغيرة.. لتعود إلى منبعها. للحظات يتمُّ له ذلك.. فيتمسك بصحوه جيداً.. بفتات جسده.. يجمعها في عينيه يشرعهما.. ضوءان صغيران في بحيرة دم جافة..

: هل تراني جيداً؟

يلتفتُ إلى أحد مساعديه.. ألا ترى أنه غير قادر على فتح عينيه جيداً.. ساعده في ذلك..

يتناول سطلاً من المياه.. يدلقه فجأة.. بسرعة.. فتحدث ارتطاماً.. تتناثر المياه مخلوطة بالدم.. لم يستطع الجنرال تفادي قطرات ماء حمراء استقرت على كتفه الأيسر.. وانساب بعضها على نياشينه اللامعة..

تجرع الجنرال غضبه مثلما يتجرع كأساً من زيت الخروع. لم يُردِ الخروج من جديّة المشهد..

إلا أن الجسد الصغير المُعلّق في سقف الغرفة صبّ كل حواسهِ في قطرات الدم التي احتلت النياشين.. كان ثمة قطرة لم تجف.. تتأرجح على الجزء المعدني المذهب من أحد النياشين.. تتأرجح.. تتأرجح.

* * *

حدق فيما يبعثه الدم من ضوء.. أسنده.. لم يكن سعد قادراً على احتمال هذه الكتلة البشرية الهائلة رغم امتلائها بالطيبة.. الجراح تنز، يعبر الدم الضمادات.. بقعاً صغيرة في البداية.. دم مضيء لم يطفئه الغبار المتراكم على الضماد. للحظة يباغته إحساس أن الجرح سيدل عليهما.. فهو النقطة الوحيدة المضيئة في ليل الصحراء.. ولكن هل ألقوا القبض عليهما بعد أن كشفهما الجرح فعلا..

تذكر: «كان الجرح فضيـتها والرداء الوحيد الذي يسترها.. هكذا كانت مريم في «طفل الليلة الطويلة» والجـنرالات حولها». للحظة تمنى أن يقعـا في كمين.. لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تنقذ حياة رفيقه الجريح.

وقعا في معسكر.. وليس في كمين فقط.. ولم يكن للأمنية يد المعجزة لتتحقق. «كانت جراح مريم.. فضيحتها.. والرداء الذي يسترها».

أحد مساعدي الجنرال كان يمسح وجهه.. يبدو أن الجنرال أشار عليهم بذلك.. لا بد أنه أعاد اسطوانة الأب الحاني حيث تفجرت فيه عاطفة الأبوة فجأة.. ابتسم سعد.

: جميل أن أراك مبتسماً.. التفتَ إلى مساعديه.. انزلوه من فضلكم.. وأرجو ألا تعيدوا الكرةَ معه.. أنا شخصياً أحميه.. سعد لي.. أليس كذلك يا سعد؟!.

يَحلّون حبل السرة المتصل بساديَّةِ الجنرال.. يتكوّم على أرضية الغرفة..

يجب أن أقف..

يحاول الوقوف.. يبتسم الجنرال.. حاول يا سعد.. حاول. كان أشبه بطفل يحاول أن يخطو خطواته الأولى.

: نحن نعرف يا سعد أنك قادم من الأراضي المحتلة.. لقد قمت بإيصال السلاح إلى هناك و..

: لا.

: قمت بتنفيذ عملية؟

: لا

تذكر الجنرال أن «إسرائيل» لم تُعلن أي خبر يتعلق بعمليات ضدها خلال اليومين الماضيين.

: ما دام يسأل فمعنى ذلك أن إسرائيل لم تعلن عن العملية..

شمس جديدة سطعتْ في عيني سعد، أدرك أن العملية كانت ناجحة أكثر مما يتصور.. إنكارهم حتى الآن دليل أكيد على نجاحها، يبحثون عن مَخْرَج للاعلان عنها.. بعد ترتيب أوضاعهم وصياغة الكذبة بصورةٍ جيدة.

- السلاح.. من أين حصلتم عليه..
- لم ألمس سلاحاً في حياتي..
- والمسدس.. والجرح..
- لا أعرف عنهما شيئاً.
- تقصد أن القصة هي سلاحك الوحيد؟

يضحك مساعدوه.. ينتشر جو من السخرية اللاذعة.. يلجمه الجنرال ثانية.

- تستطيعون تقديمي للمحاكمة بسبب حيازة قصة في جيبي.

- نحن لا نقدم أحداً للمحاكمة بسبب قصة.. وما اسمها.. آه «طفل الليلة الطويلة» امرأة في قصر المؤتمرات.. صحافة.. أضواء فلاشات.. طفل.. وجنرالات.

.. من هم هؤلاء الجنرالات يا سعد.. إذا لم يكونوا جنرالات إسرائيليين؟

: صمت.
- أنت عطشان الآن يا سعد.. أليس كذلك؟!

- لا..
- مُتعَب؟.
- لا..
- جائع؟. مرّ يومان بلا طعام.
- لا..
تصاعد غضب الجنرال.. تقيأ كاس زيت الخروع..

- ماذا كنت تفعل إذن في النقطة التي قبض عليك فيها مع ذلك الثور الجريح.

- لا شيء.

- تتنزه مثلاً؟

- ...

فكر الجنرال.. شخصية مُغلقة لا يفك رموزها غير سحقها تحت نعل ثقيل..

قال له المحققون والمساعدون.. أساليبنا لم تُجد.. أحدهم صعد إلى مكتب الجنرال مُتعباً، كان قد فقد كل إحساس بإمكانية انتزاع اعتراف.. كان يود أن يحفظ ماء وجهه كمحقق. ولكن كيف؟!

قال للجنرال: لعله يقول الصدق..

انفجر الجنرال: أرسلك للتحقيق معه فترجع لي منهاراً.. تنهار أمام طفل.. هل.. هل كان يتنزه في الثالثة صباحاً بمسدسه؟

تراجع المحقق: إنه نواةُ حبة زيتون سيدي.

: اسحقها..

: سحقناها.. ولكننا لم نجد فيها شيئاً!!

عاد المحقق إلى الزنزانة.. بدأ فصل شرس جديد من الضرب..

قال المحقق للجلادين: هذا الجسد ساحة معركتنا.. ويجب أن ننتصر..

* * *

كانا قد تجاوزا الحدود.. نقطة اللقاء محددة وواضحة.. مزرعة برتقال جنوب المعسكر، المسافة الفاصلة بينهما ثلاثة كيلومترات، استعرضوا الخطة للمرة الأخيرة، ثم ابتدأ التنفيذ فوراً..

كان هنالك اثنان من المقاتلين ينتظران.. أصبحوا أربعة.. سعد يقود العملية كاملة.. اما عند العودة فتنقسم المجموعة إلى مجموعتين مثلما كان الوضع قبلها.. مقاتلا الداخل، يتوجهان إلى الداخل، وينسحب سعد وخالد عبر الحدود ثانية..

أرض المعركة كانت أمامهما على الخارطة.. المعركة كانت متقنة على الورق.. فرص النجاح تقلع نظرة النحس من عين زُحل، عبروا الليل عند منتصفه.. ليلاً فلسطينياً شاسعاً وهادئاً فوق بيارة برتقال، النهار كان اختفاء في رائحة زهور الليمون الصاعدة على جوانب المزرعة، حصار طيب، يشق الصدر ويسكن الخلايا، زحفت الساعات بطيئة كعادتها حين تخفق في الأفق البعيد لحظة ينتظرها القلب من زمن..

سعد.. خالد.. عبد الرحيم.. ميشيل:

أعاد سعد شرح الخطة.. المجموعة تنقسم إلى مجموعتين سعد وميشيل: الاقتحام.. خالد وعبد الرحيم: الانقضاض الناري الثاني.

تجاوزا حدود البيارة.. نقطة اللقاء ستكون فيها بعد الانسحاب، السلاح أربع بنادق أتوماتيكية اثنتا عشر قنبلة يدوية. ستمائة طلقة..

تقدم الليل.. الهجوم في الواحدة. تكون الفرصة قد أعطيت كاملة لخدر الحرس، حارسان على البوابة.. حارس في البرج الصغير على الزاوية الشمالية الشرقية المرتفعة.. خمس خيام منتصبة على طول الضلع الطويل للمعسكر.. ساحة في المنتصف للتدريب الصباحي.. وعدد من العربات العسكرية.

زحف عبد الرحيم.. كان الحارس يدور في البرج.. إصابته كانت سهلة.. فهو بعيد عن الأرض.. بلا جذور.. البندقية كانت جذوره المعلقة في حلكة الليل. الأرض كانت جسد خالد في تقدمه.. والتسلل الرشيق لسعد وميشيل باتجاه البوابة الرئيسية للمعسكر حيث كان يقف حارسان.

أهدافهم كانت في عيون بنادقهم.. خالد ربض في منتصف الضلع الشرقي للمعسكر..

ثلاث صليات انطلقت في الوقت نفسه.. سقط بعدها جنديا الحراسة وجندي البرج.

تقدم عبد الرحيم أكثر واختار النقطة المرتفعة في الزاوية الشرقية.. مهمته وخالد أن يربضا في حين اندفع سعد وميشيل عبر

البوابة. النيران يجب ألّا تتوقف ثانية واحدة.. تقدما في زاوية تسمح لهما بالسيطرة على كلّ الخيام.. أربع قنابل صوب السيارات العسكرية... ليل يشتعل.. يتقاطع ظلُّ الواحد منهما مع الآخر في لهيب النارالمتصاعد.

كان يجب أن تتم العملية وكأن عدد المهاجمين يفوق الجنود أضعافاً، إنقضاض.. وعملية تمشيط كاملة.

جندي يخرج من الخيمة الوسطى زاحفاً.. يطلق النار بصورة عشوائية.. الأرض تشدهما نحوها.. ينبطحان، جندي آخر يطلق النار.. يصرخ بين الفزع وبين الهياج.. قنبلة أخرى باتجاههما. صمت يخلفه دخول الخيمة الوسطى إلى قبضة اللهب الذي يمتد بسرعة إلى بقية الخيام.

ثلاث دقائق ونصف الدقيقة.. زمن الهجوم.. انسحاب سريع للمجموعة المهاجمة، ثلاث دقائق.. ثم تنسحب المجموعة الثانية.

هب الصمت نارياً.. تدافع بعض الجنود.. المهاجمان ابتعدا.. أطلاق نار مجنون يترك مخازن أسلحتهم فراغاً، كأنه الكابوس.. لا أحد..

في هذه اللحظة بالذات.. لحظة الصمت.. ساعة الصفر الثانية يبدأ الانقضاض الناري لمجموعة عبد الرحيم وخالد.. الأهداف واضحة في ضوء النيران..

والمفاجأة ستكون كاملة في المرة الثانية مثلما كانت في المرة الأولى، ثم انسحاب سريع..

ولكن كل تلك النيران لم تمنع هبةَ رصاص مُحكَمٍ باتجاه خالد في انسحابه.

في البداية اعتقد أنه ارتطم بغصن جاف.. واصل انسحابه، لا ألم.. وبالسرعة المطلوبة التي لا تتركه وراء عبد الرحيم. الدم اختلط بالعرق.. واصل هرولته عبر الحقول.

في المزرعة التقى الأربعة ثانيةً.. عناق سريع في ساحة الحرب، عندها قال خالد: أنا مصاب..

لم يستطع أحد تحديد حجم الإصابة.. خالد قال إنها بسيطة.. لا أشعر بها.. ولكن الطلقة كانت قد عبرت من الناحية الخلفية للفخذ وشقته من الأمام..

القيام بالعملية وإيصال السلاح كانت مهمتهما.. إصابة عصفورين بحجر واحد..

ـ تستطيع السير.. قال سعد بعد أن تمت عملية إسعاف سريعة كيفما اتفق.

ـ أستطيع الطيران..
ـ لو كنتَ أخف وزناً!!
ضحكوا..

ميشيل وعبد الرحيم توجها غرباً.. سعد وخالد شرقاً.. ونقطة اللقاء والانطلاق بيارة برتقال.

يعم الصمت..

تبتعد المعركة يسقط سعد في غيبوبة ما.. تعيده لصحوه كلمات حازمة..

: هذا الجسد ساحة معركتنا..

قالها.. وصعد الدرجات.. الساعة تقترب من السادسة والنصف..

الأنيق يسأل.. والأنيق يجيب.. تعذيب لم يتوقف طوال يومين.. ضربٌ تجويعٌ.. تعطيش.. بلا نوم..

حوار مشحون بالكره.. أسئلة حول المطالب الصغيرة..

* * *

على أرضية الغرفة.. وجد نفسه غارقاً في بقع سوداء.. يبدو أنه تقيأ.. حاول أن يعتدل.. كان ملوثاً تماماً.. غير قادر على الوصول إلى قدميه.. إلى مساحة نظيفة يتعلق بها.. إلى يديه ليدفع بهما الأرض محاولاً الوقوف زحف على أربع.. اكتشف بركة صغيرة تحته.. ملابسه

مبتلة.. شق الباب.. ضوء الشمس يغالب العتمةَ في لحظات اندحارها الأخيرة.

وقعت عيناه على ملابسه.. البقع السوداء تفترشها.. تحامل على نفسه مستنداً إلى الباب.. مضى إلى المغسلة.. فتنة نائمةٌ.. كذلك الصغير.

خلعَ ملابسه في البداية.. أشعل الضوء ارتجف.. البقع السوداء تغطي جسده أيضاً.

حاول أن يستحضر ملامح أمه.. لم يستطع.. بقعة سوداء ابتلعت مخيلته فجأة عَبَرهُ إحساسٌ بأنه لقيط..

: لو كنت غير ذلك لأستطعـت تذكرها..

اندلق حبل الماء المجنون فجأة.. غسل صدره.. ذراعيه.. الماء أكد له أنه خارج حدود الكابوس.. والماء نفسه لا يلغي بصمات الكابوس على جسده.

بلل المنشفة.. مسح الحبرَ عن ساقيه.. لم يُجدِ ذلك.. بقعُ سوداء انتشرت محتلةً جسده بمساحات متفاوتة.. انتابه جنونٌ.. تفجرتْ القوةُ فيه.. كان يريد أن يمحو هذه البقع بأسرع وقت ممكن.

بدأ جلده يتسلخ.. والسواد ظل سواداً. تذكر برعب أنه كان مستلقياً في بحيرة صغيرة من سائل لزج.. أدار ظهره باتجاه المرآة.. كتم صرخة أوشكتَ أن تنفجر وتُخلِّفه صدى.. ثلاثُ بقع حالكة تحتل ظهره.. وبقعة كبيرة تحتل مؤخرته.. انطلق فُتات من صرخة مكتومةٍ.. جاء الصوت مستفسراً: أحمد؟

ركض باتجاه باب الحمام..
من شقِّ الباب الصغير خرج صوته:
: نعم.. نامي..؟!!

لملم ملابسه.. أصبح العريَ بكامل فضيحته.. كوّر الملابس زجَّها

في زاوية الحمام.. لم يبق فيه مساحات بيضاء سوى كفيه ووجهه.. أما بقية جسده.. فكانت مبرقعة بالأسود، عبأ صفيحة بالماء دلقها على صدره.. الماء البارد والصباح.

حاول ثانية.. العبثُ هو المحاولة.. حكَّ ظهره بالحائط.. ارتفعت صيحات طبول الجنون في جوفه.. حك مؤخرته بأرضية الحمام.. حدّقَ: لا جدوى..

أطفأ الضوء.. لم يعد قادراً على رؤية جسده.. اختلط بالظلام.. أصبح قطعة منه..

عرق حار يشعل قطرات المياه الباردة.

شقَّ باب الحمام.. خرج متسللاً مُخلِّفاً ملابسه كانت فتنة قد عادت إلى النوم.. تناول قميصاً ذا أكمام طويلة.. وبنطالاً.. عاد إلى الحمام..

قال: الحبر لا يزول بسرعة.. ولكنه يزول أخيراً.

ارتدى ملابسه النظيفة.. بحث عن كيس من النايلون.. زجّ فيه الملابس الملوثة.. زجها كما لو أنه يخفي ملابس جريمةٍ غارقةٍ في دم أسود.

أشرع البابَ.. غادر المنزل.. في الضوء الشاحب حدّقَ متفقداً ما تبقى من مساحات بيض في جسده.. سرّه أن البقع اختفت خلف القميص ذي الكمين الطويلين، والبنطال. أطلق خطاه صاعداً من مجال الكابوس.. انعطف إلى شارع جانبي.. يعرف. ثمة حاوية للقمامة فيه.. رآها.. اندفع باتجاهها.. اكتشف أنه بدأ يركض.. حبس الخطوةَ في رتابتها المعتادة. تلفت. لم ير أحداً.. ألقى الملابس بسرعة في داخلها.. في تلك اللحظة انفجرت بقعة سوداء داخل الحاوية.. اندفع قط أسود بقفزة عالية.

تراجع للوراء أشد فَزَعاً.

أعاد النظر إلى أجزائه.. ليس ثمةَ آثار تظهر من خلف الملابس،

عبر الشارع باتجاه محطة الباصات. الخامسة والنصف صباحاً.. الحركة تعمّ الساحة الواسعة كأن الناس تسللوا على رؤوس أصابعهم محاولين ألّا يثيروا الانتباه في الرحيل اليومي لانتزاع لقمة الخبز من لهب آب.

صعدَ درج الحافلة.. على غير عادته.. لم ينظر حوله. عيناه في الأرض.. كان الطاووس عارياً من زهوه.

- أستاذ أحمد.. صباح الخير.

: صباح الخير..

- أراك مبكراً اليوم.

- عمل...

حدق بين قدميه.. محاولاً الابتعاد عن النظرات.. وهناك باغتة قط أسود ينظر إليه بخبث. ارتعب.

* * *

العالم حولنا يتطور.. هكذا قيل لي.. وهكذا نصحني من يهمه أمري.. ويهمني أمره.. لم تعد أية أبواب مغلقة في هذا العالم.. لأن العالم اليوم بأبواب كثيرة.. لا يستطيع أحد امتلاك قدرة سحرية على سدها جميعاً.

علي أن أحطم هذا القرد الصغير أولاً، وهذه القرود المنتفخة أيضاً.

نعم يجب أن نجد مساحة مشتركة نتواجد فيها.. نحن وهؤلاء الذين يسمون أنفسهم مثقفين.. بذلك تتغير صورتنا.. حين تختفي هذه البؤر الفاسدة التي تسمي نفسها معارضة.. نكون قادرين أن نواجه العالم بعين أقوى.. بعين الديمقراطية.. نحن الديمقراطية.. نحن الأمن..

صدرنا رحب لندفنهم فيه.. هم وتطلعاتهم.. وليأخذوا ما شاؤوا بعض المكاسب ..الصغيرة.. ليكن. أن نسمح لهم بمناقشتنا. ليكن.. أن نشعرهم بأننا نسمعهم.. ليكن.

وقيل لي: لا بأس ببعض الحرية.. تزين بها الواجهات العريضة

لمؤسساتك، ولا بأس - حتى - ببعض الديمقراطية. انتخابات.. ولتكن شكليّة إذا لزم الأمر.

قلت لهم: أما هذه.. فلا.

نعم لا يمكن أن الدغ من جحر واحد مرتين.

وتذكرت، وسأبقى أتذكر تلك الحادثة المهينة:

كنت في المدرسة الثانوية.. في الصف الأخير.. وتقرر انتخاب رئيس لمجلس الطلبة فيها.. لم يكن هناك سوى متنافسين فقط، وحين بدأ الطلبة يلقون بأوراقهم في الصناديق، وقفت، وأوصلت الديمقراطية إلى حد لم تكن تحلم به.

أمسكت ورقتي ورفعتها أمام الأعين، وقلت: أما أنا فسأنتخب منافسي. وألقيت الورقة لتختفي بين مئات الأوراق. كنت واثقاً بالفوز. وحين بدأ الفرز.. حين انتهى.. لم يكن مقابل اسمي على اللوح الأسود سوى إشارة واحدة. واحد فقط أعطاني صوته.. واحد.. هو ذلك الذي أصبح فيما بعد مساعدي الخاص. كان صديقي الوحيد.. وكان أضخم من الآن بكثير.. لم يكن لي سواه.. أطلقوا علينا لقب العاشقين.. ولكن الذي تجرأ على ذلك هشمناه.

قلت له: لماذا أعطيتني صوتك؟

قال: كنت سأنكشف لو لم أفعل ذلك!

قلت له: إذن كان الأمر واضحاً لك.

قال.. نعم..

قلت: سأقتلك يوماً ما بطريقة تشفي غليلي.. وإلى أن أجدها ستبقى بجانبي!!

وقلت لهم: أما الانتخابات فلا..

كل شيء.. إلا هذه.

* * *

.. ويجب أن نسحق هذه القرود الصغيرة المتقافزة عبر خطوط النار في الداخل وعلى الحدود الآن.

العالم يتغير.. وأنا الجنرال.

* * *

- احضروه لي فوراً.

عاد مساعد الجنرال الخاص.. طرق الباب.. استرق أحمد الصافي نظرة تأكد للمرة الأخيرة من أن ملابسه لا تُفصح عن أيّ شيء تحتها. ولكي يَطْمئنَّ أكثر قام بإغلاق الزر الأخير لرقبة القميص.. فبدا أشبه بشخص مشنوق.

حين شاهده.. أدرك الجنرال أنه لا يقابل أحمد الصافي ذاته الذي قابله منذ يومين.

وقفَ.. صافحه..

في الغرفة كان خيط طويل من الضوء ينتشر محاولاً أن يكوِّن مساحةً بحجم الشُّباك الصغير، انتشاره كان يزيد من وضوح ظلال القضبان الحديدية للشُّباك.

كان مرتبكاً.. إلا أنه بدأ يستعيد أنفاسه بفعل الفترة الزمنية الطويلة التي كان الجنرال يتحدث فيها دون توقف.. دون أن يلتقط كلمة واحدة من كلماته.

مساحةُ الصمت في الكلمات المبعثرة للجنرال تركته يتذكر تلك اللحظة المفاجئة في «طفل الليلة الطويلة» حين شق الطفل الضوء والجسد الملقى مُعلناً الدهشة التي ستتحول بعد ثوان إلى فزع يغمر المكان وهو يهبط عن الطاولة المستديرة التي سُجت عليها مريم بكامل جراحها..

أنا «طفل الليلة الطويلة» شابٌ خجولٌ يقتربُ منه شاقاً صفوف الجمهور المحتشد في القاعة الضيقة.. يناوله ورقة بيضاء.. ينسلّ خارجاً..

أنا طفل الليلة الطويلة.

لماذا لا أكون أنا أيضاً طفل ليلتي الطويلة.. هل أنا ابن الليلة الطويلة فعلاً.. عاوده الاحساس مرة أخرى بأنه لقيط.. تراني كنت أبحث عن أُم لي حين كتبتُ القصة.. كيف نكون طفليّ ليلةٍ واحدةٍ.. وأمه مريم.. وأمي الليلة الطويلة.. أُمّان.. واحدة للكاتب.. وواحدة للطفل.. لماذا لا أكون أنا أيضاً ابن مريم.. أنا أبنها.. نعم أنا أبنها.. القصة قصتي.. كتبتها.. ولي أن أُفصِّلها كيفما أشاء.

وجدَ القشةَ الصلبة التي يمكن أن يتعلق بها غريق.. عبره إحساس مفاجيء بالقوة.

عَمَّت صرخةٌ مندفعةٌ من القبو.. من عمق الأرض، ذرات الهواء.. بقعة الضوء المقطّعة بظلال القضبان.

لم يكن قد سمع شيئاً بعد مما قاله الجنرال.. حين دخل المساعد الخاص..

اقترب من الجنرال: أعتقد أنه سيموت إذا لم نتوقف.

أشار إليه الجنرال أن يقترب أكثر، همس في أُذنه بكلمة واحدة انطلق بعدها مسرعاً.. ولم تعد الصرخة تُسمع ثانيةً.

اعتدل الجنرال.. ألمتْ به رغبةٌ في الدوران.. بدأ يذرع الغرفة.. التفتَ إليه.. توقف كمن يفاجأ بجثة.

أستاذ أحمد.. قرأت مقالك هذا الصباح.. مقال جيد.. ولكنك ما زلت تكتب بنفس الطريقة التي كنت تكتب بها.. كنت آمل أن تغير بعض قناعاتك بفعل حوارنا السابق.

حاول أن يتذكر أي حوار في المرة الأولى.. فتذكر أن الجنرال وحده الذي تكلم.. وتذكر صرخة انطلقت قبل لحظات.. ثم..

سيموتُ إذا لم نتوقف.

هل ثمة تهديد مباشر؟ غير مباشر؟.. أم أن واحداً يطأ الموتُ

أطرافَ روحه في هذه اللحظة.. من يكون؟. لماذا؟. أم أنها خدعة.. هي خدعة.. لا شك.

الهدوء كامل.. سوى أصوات السيارات التي تصل ضعيفة من الشارع المحاذي للمبنى.

: مثلاً.. أن مقالاً مثل مقالك الذي طالعته اليوم.. يمكن أن نناقشه بيننا، فبدل أن تكتب.. بدل أن ننشر غسيلنا الوسخ على الحبال.. ونتركه معلقاً.. نستطيعُ مناقشة الموضوع معاً.. بهذه الطريقة فقط نتوصل إلى حل لمشاكل «البلد» هذه الدعوة لك ولغيرك.. لا تعني أننا غير قادرين على معالجة أي وضع يجدّ هنا.. ولكنه يعني شيئاً واحداً.. إننا لا نريدكم أن تكونوا هامشيين..

: حين أكتب أطرح تصوري لمشكلة ما.. أشرحها.. وليست مهمتي أن أطرح الحلول كلّها.. لأنني لا أمتلك أدوات التنفيذ.. فأنا في النهاية...

قاطعة الجنرال: هذا ما أردت قوله.. إن بعدكم عنا يفقدكم أدوات التنفيذ.. آلية التنفيذ.. ولأعترف.. أن غياب بعض العقول المستنيرة، وبُعدها عنا سببٌ مباشر أحياناً في وقوعنا في بعض الأخطاء.. بمعنى أنكم تتحملون نتيجة أخطائنا..

- كنتُ أريد أن أقول إنني كاتب في النهاية.

ابتهج الجنرال فجأة.. كمن يوقعُ عصفوراً في فخ: لا تقل لي هذا. لأنه يعني شيئاً واحداً.. أنك تحلم.. لا شك أنك تتقنُ حرفةً أخرى غير الأحلام.. اليس كذلك؟

دخل مساعدُ الجنرال مسرعاً.. دون أن يطرق الباب.. سيدي.. اتضح الأمر.. لقد وصلنا التقرير الكامل. اقتربَ أكثر.. ناوله ملفاً.. همس في أذنه. انقلبت سحنةُ الجنرال ضرب الطاولة وكان يتكيء عليها.. صرخ:

خذوه..

ارتبك أحمد الصافي ماذا حدث.. وماذا تعني خذوه الصاعقة هذه.. إلى أين.. هل التقرير يتعلق به شخصياً.. أم أن هناك أمراً خطيراً لا يعرفه.. لا علاقة له به.

قبل أن يبلغا الباب.. صرخ الجنرال: أعده إلى القاعة.. دعه ينتظر..

تنفس أحمد الصافي.. ليس هو المقصود إذن.. «دعه ينتظر» غير «خذوه» غيرها تماماً.

* * *

## التقرير الاخباري

أذاع راديو «إسرائيل» في الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم. خبراً مفاده أن مجموعة من «المخربين» عبرت الحدود وقامت بتنفيذ عملية عسكرية ضد حافلة مدنية للركاب قرب أحد معسكرات الجيش. وقد هبّ جنود المُعسكر إلى مكان الحادث.. وأسفر الهجوم عن مقتل جندي وإصابة خمسة آخرين وتم إنقاذ ركاب الحافلة. وقامت قوات الجيش بتتبع آثار «المخربين».. حيث تأكد لها أنهم عبروا الحدود من الخارج.

وصرح ناطق رسمي باسم وزارة الدفاع أن الوزارة تحمل الدولةَ التي عبر المخربون من أراضيها كامل المسؤولية. وأنها لن تقبل أن تكون حدودها معها أو مع غيرها.. منطلقاً لعمليات تخريبية ضد الأهداف المدنية والمواطنين الآمنين!!.

* * *

طلب مساعدو الجنرال ـ وحراسه الذين عادوا للظهور ـ من العاملين في الصحيفة عدم إصدار أيّ صوت من الممكن أن يعكر صفو الجنرال.

قالوا: هذا الهدوء لمصلحة الوطن.

فالتزم العاملون في الصحيفة بحب الوطن.. كما لم يلتزموا في أيّ يوم مضى.. فجأة خَلَتْ ممرات الطابق الأول من: مبنى الجريدة.. اختفى الصحفيون.. والاذنة وموظفو الارشيف، وكتمت الأصوات الصادرة من غرفة الرصد، وتكتكة آلات استقبال أخبار الوكالات العربية والأجنبية.. وتداخل الجميع في بعضهم وعبروا دهاليز معتمة طويلة وتكوروا هناك في انتظار انتهاء الغارة.. وما لبث رئيس التحرير أن تبعهم للطابق الأرضي الموحش شبه المهجور دائماً.

لم يعد في الطابق الأول أحد غير الجنرال ومساعده الخاص.

كان يبحث عن مَخرج وحين أهتدى إليه.. قام من فوره لتنفيذه. كان المخرج يتلخص في كتابة اعتذار عن العملية عبر أراضيه، لخطورة المسألة التي يمكن أن تنتج عنها حرب، لا يريدها، ولا يستطيع إلا أن ينهزم فيها.

شخصياً قرر الجنرال أن يقوم بكتابة الاعتذار بنفسه، وأن يعطيه لاحدى الصحف لنشره في اليوم التالي تحت عنوان ما، أو في المكان المخصص «لكلمة الصحيفة» حدد الجنرال ما سيقوله، حصره بين دفتي دماغه: التأكيد على حسن الجوار والالتزام بالهدنة، والاشارة إلى أن حالة السِّلم ستخدم شعوب المنطقة كلها، حيث لا يمكننا بأي شكل من الأشكال إبادة شعوبنا نتيجة تصرفات طائشة، وأن مستقبل المنطقة متوقف على حجم السلام الممكن أن يعشعش فيها. كل تلك الأفكار وغيرها.. كانت المحاور الرئيسة التي سيعمل الجنرال على تنسيقها فوق أوراقه.

.. إلّا أن التفكير في الشيء شيءٌ، وصياغته في جُمل مفيدة محددة شيء آخر.. هكذا اكتشف الجنرال.

نظرَ إلى ساعة الحائط، كانت تقترب من العاشرة صباحاً. لديه وقت طويل.. ولكن المسألة لا تحتمل التأجيل.

* * *

في الصباح.. فور قراءة التقرير، طلبَ الجنرال كل مساعديه. تباحثوا في أفضل وأنسب الطرق للرد على التهديد المُبَطَّن.

هل يتم الأمر بإذاعة بيان رسمي، استبعد ذلك لحساسية الموضوع، فهو لا يريد للعملية طنةً ورنة لا سيما بعد موت أحد المعتقلين، هذه مشكلة لم تحل بعد.

وللحقيقة أنه لم يترك مجالاً لصاحب الاقتراح ليكمل اقتراحه، اقترح آخر ـ وبدا عليه الهدوء اللزج واضحاً ـ كتابة اعتذار وتسليمه لضباط الهدنة، إلّا أن الجنرال كان مقروصاً من الوثائق، فالكثير منها استخدم في كتب أصبحت من الفضائح الكبرى. أصدرتها الجامعة العبرية وغيرها، بعد مرور ثلاثين سنة على تاريخ الوثيقة كما هو معروف، ومعمول به دولياً.

اقترح أحدهم وكان ضئيلاً إلى درجة أن الإنسان يحتاج إلى وقت طويل قبل أن يعرف مصدر الصوت ويراه بوضوح، اقترح إرسال مبعوث يعتذر في لندن أو أية عاصمة أوروبية بسريّةٍ.. بعد أن تكون السفارة الأمريكية قد نظمت الموعد..

فكر الجنرال بالاعتذار مباشرة إلى السفارة الأمريكية لأن ذلك يكفي.. إلا أنه تذكر بعض حوادث سوء الفهم الماضية المشابهة لحادثة عبور الحدود هذه، وتذكر ردود الفعل المؤنبة القاسية.. فلم يصرح بفكرته. حانت منه التفاتة سريعة إلى الساعة. طلب من مساعده الخاص تشغيل جهاز الراديو.. لكي يسمع الخبر من نشرة الاذاعة الاسرائيلية المعتادة، يسمعه بنفسه..

السابعة والنصف تقترب.. مُشهرةً عقاربها.. تصاعدت دقات الساعة، احتلت طاولة الاجتماعات، حلكة اللون البُني للطاولة والمقاعد، بدأ الترقب يحتل مسارات دمه، التوتر، انتصب. دار حول الطاولة.. جاءت دقات ساعة الراديو.. اختلطت بدقات ساعة الجنرال في توافق عجيب.

كان عليه أن ينتظر إلى ما لا نهاية، قبل أن يسمع الخبر. لعبة إعلامية.. للإيحاء بعدم أهميةِ خبرٍ مهم. تقوم بها كل الاذاعات ويفهمها

الجنرال جيداً.. تسمرت العيون على جهاز الراديو.. ازدادت لزوجةُ اللزجِ.. لم يعد الضئيل يظهر فوق مستوى الطاولة.. وأتى صوت المذيع واثقاً.. وجدياً:

أفاد مراسلنا العسكري، أن مجموعة من «المخربين» عبرت الحدود وقامت بتنفيذ عملية عسكرية ضد حافلة مدنية للركاب قرب أحد معسكرات الجيش. وقد هبّ جنود المعسكر إلى مكان الحادث، وأسفر الهجوم عن مقتل أربعة جنود وإصابة تسعة آخرين، خلافاً لما جاء في نشرتنا الصباحية الأولى.. وتم إنقاذ ركاب الحافلة!

وصرح ناطق رسمي باسم وزارة الدفاع...».

أدرك الجنرال أن الخطر قادم، فازدياد عدد القتلى يَحملُ معنيين، إما أن ذلك حقيقة، وإما أن العدد رُفع لتبرير شن هجوم تأديبي على أراضيه.. فجأة رأى مساعديه أمامه.. كأنه يراهم للمرة الأولى.. صرخ.. هذا التقصير من يتحمل مسؤوليته؟؟

اختفى الضئيل تماماً وسرّه أنه وُلِدَ بهذه الضآلة، وهذا شعور ينتابه دائماً كلما التقى الجنرال غاضباً. وسال اللّزج عرقاً وفزعاً وتصبَب حتى تجمع عند قوائم الكرسي الذي يجلس عليه.

: من يتحمّل مسؤولية هذا التقصير؟.. أنتم.

حين يغضب الجنرال تغضب الدنيا. تصبح قاسية.. سوداء.. مفترسة حاول مساعده للمنطقة الجنوبية - ولنحس حظه - أن يبدأ حديثاً.. قاطعه صارخاً:

هذا كلام كان يمكن أن يقال قبل عشر سنوات أو عشرين سنة.. وليس اليوم.. أي هراء هذا..

- قواتنا غير كافية؟

قال مساعده مقاطعاً حمم الغضب.

نظر الجنرال إليه ببرود..

: وبعدين؟

: العدو نفسه ـ سيدي ـ لم يستطع وقف العملية.

: تطالبني بأن أتوجه إلى أمريكا لأطلب منها تعزيز قواته بإرسال آخر وأفضل أسلحتها له؟..

صفق باب القاعة.. تركهم وتوجه إلى مكتبه.. اتصل بالسفارة الأمريكية، حاول أن يشرح لهم ملابسات العملية.. وما نتج عنها..

: قاطعه الصوت.. نعرفُ ذلك منذ يومين.

: سنعتذر.. سنعتذر في الصحف ولكن كل ما في الأمر أننا نرجو منكم العمل على تطويق الحادث.

: نحن نحاول ذلك منذ يومين.. ولكنني أُحب أن أقول لك أنكم تضعوننا في مواقف محرجة باستمرار، مع حكومتنا ومع صديقتنا، ما يحدث يشكك في معنى تقديم أية مساعدات لكم.

أنتم تعرفون ـ سعادة السفير ـ إننا العين الساهرة..

: نعرف ذلك.. ولكن عينكم الساهرة كثيراً ما تغفو، وليس هناك مبرر أن نقوم بالسهر عنكم، أو معكم.. حاولوا من طرفكم إيجاد مخرج.. نحن سنحاول.

انتهت المكالمة.

إنهدم الجنرال بين ذراعي مقعده.. كان طوال المكالمة واقفاً:

ـ رغم لهجة التأنيب القاسية هذه.. إلا أن هناك ما يطمئن.. على الأقل هناك طرف آخر يعمل على تطويق الموضوع.. ومنذ يومين. أصدقاء.. أصدقاء فعلاً..

رفع السماعة.. وقد بدا أكثر راحة.. تحدث مع مساعده الخاص ـ سكرتيره طلب منه أن يصرف الموجودين..

فصرفهم..

* * *

كان يكره الكتابة.. ويحسد الكُتّاب.. مرة قال إن بإمكاني أن أضع

قنبلة بالحجم الذي أُريد بدل دماغي.. ولكن لن أستطيع استخدامها في التفكير.

العالم يتطور.. ومنذ زمن لم يعد يذكر بداياته. ظل يستند إلى البندقية والأجهزة الأمنية، يعزز وجودها عقب كل خسارة.. أو نكسة، أو هزيمة تلحق به.. كان يتفسخ شخصياً. ويتفسخ كل ما حوله من أدوات.. وكلما ازدادت الشروخ ضاعف كمية الهراوات في محاولة ردمها، وضاعف الضغط على الشارع وعلى الرصيف. بهذا يستطيع المواصلة.

: وفجأة يخرج عليك أحدهم يعبر الحدود ويعكر صفو كل شيء..

كان تلقى نصيحة بأن يستقطب أكبر عدد ممكن من المثقفين، يحاورهم في سبيل الوصول إلى لغة مشتركة.

قيل له: أنت لن تكون مُجبراً على الأخذ بكلامهم.. ولكنك ستُضفي الطابع العلمي على قراراتك وإجراءاتك.. ولكنه تناسى ذلك حين رأى أنه لا يحتاج حتى لحراسه.

قال: أنت لا تحتاج للبوق.. حين تمتلك المدفع..
ومنذ ذلك الحين ذهبت كلمته مثلاً.

* * *

طالب مساعده بعدم إدخال أحد عليه.. وعدم تحويل أي هاتف إلا إذا كان الأمر يتعلق بالقضية ذاتها.

جمَّع أفكاره.. حاول أن يكتب.. كان يلزم بعض الوقت لتصفو المياه.. حاول.. لم يستطع.. وللحظة عبرته فكرة: أن الجو هنا غير صالح للكتابة وجد أن أفضل جو مناسب لذلك هو جو صحيفة مثلاً.

تذكر أحمد الصافي.. وحين عبر غرفة مساعده الخاص، الذي انتصب كعامود خشبي قال له: اتبعني.. وقل لهم أن يبقوا أحمد العكر هذا هنا.. دعوه ينتظر.

* * *

ظلت الأوراق الملطخة بالحبر تتجمع بجانبه، وعلى أرضية الغرفة،

تماماً كما في المشاهد التي يعجز فيها بطل المسلسل التقليدي عن كتابة رسالة حاسمة إلى حبيبته. لم يستطع إحكام قبضة الحبر على جملة واحدة مما كان يفكر فيه.. ظلت الكلمات حبراً.. حبراً أسود لا غير.

تنبه أن هناك صوتاً يجيء من الطابق الأرضي.. أدرك أنه صوت ماكنات الطباعة كان القسم التجاري يعمل.. أدرك السبب الذي يمنعه من الكتابة. صرخ لحظة وكان مساعده الخاص بين يديه، لا ينقص المشهد إلا أن يهتف:

«شبيك لبيك».

: قل لهم أن يوقفوا ماكنات الطباعة فوراً.. أن أصواتها تبعثرني.. تبعثرني تماماً.

هبط الدرج مسرعاً.. ارتبك الصحفيون ورئيس التحرير.. في البداية اعتقدوا أن الموقف سينجلي عن مذبحة.. لم يكن أحد منهم يفهم ما الذي يجري.. ولماذا تُحتل الصحيفة هكذا دون سابق إنذار. رئيس التحرير كان الأشد رعباً.

صرخ المساعد الخاص: أين الماكنات وكان سيل الحرس المدجج بالسلاح يندفع خلفه..

: تحت.. أجاب رئيس التحرير..

صرخ: اتبعني.

تبعه متعثراً..

عمّ الفزع

لم يفهم عُمال المطبعة ما يُراد منهم إلا متأخرين.. اختفى بعضهم في أيّ ثقب صادفه يتسع لجسده.. التصقوا ببعضهم.. وتبعثروا ثانية.. ثم التصقوا..

صرخ أحدهم: ماذا فعلنا لنموت هكذا؟!!

أدرك رئيس التحرير حالة الفزع بفزعه الشخصيّ.

كان قرب المفتاح الكهربائي المركزي للمطبعة.. مد يده قطع التيار الكهربائي عم الظلام.. وسقط الصمت فجأة من كل مكان.

أدار المساعد الخاص ظهره.. صعد الدرجات.. تبعه الحرس.. ثم رئيس التحرير الذي كان يحاول اللحاق بهم دون جدوى..

وفجأة نظر إليه المساعد الخاص.. همس:

الجنرال يكتب.

* * *

تنفس الجنرال.. عبّ كميات من الهواء تكفي غابة في ليلة مظلمة.. أحس أن الوقت الآن مناسب.. مناسب للكتابة.

إلّا أن ذلك لم يكن بالسهولة المتوقعة.. كانت القنبلة تصدر صوتها الرتيب بدل دماغه.

كوّر الأوراق المتناثرة أمامه.. بدأ يقذفها بعيداً.. إلى أقصى ما يستطيع.. كان يحاول إصابة الساعة.. وصوت القنبلة في رأسه.. قذفها جميعاً..

مد يده إلى يمين الطاولة إستل رزمةً من الأوراق البيضاء.. أدرك سبب إخفاقه فجأة: لقد كان يكتب على ورق الصحيفة الأصفر العادي.. أفرحه البياض.. سمعه يدعوه.. بياض كامل.. بدأ:

السلام مطلبٌ إنساني أولاً وأخيراً. توقف.. فاتحةٌ قوية.. و.. لم يستطع ربط الجملة بجملة تليها، تدخله للموضوع بصورة غير مباشرة، تذكر أن أهم الصفات التي يجب أن تتوافر في هذا المقال، أن يوصل به ما يريد، وألّا يفهمه غير المعنيين بذلك، أن يعتذر فيه عن العملية دون أن يذكر العملية ذاتها.

رمى القلم.. دار في الغرفة الواسعة.

صرخ ثانيةً..

: حاضر سيدي.. كان مساعده الخاص بين يديه.

: احضر رئيس التحرير.

وقف جامدا يملؤه خوف غامض.

حاول أن يشرح له شيئاً ليقوم بالكتابة بدلاً عنه.. اكتشف أنه غير قادر على إيصال ما يريد.

حدث هذا منذ زمن.. حين قام الجنرال بإلقاء كلمة في افتتاح مصنع ضخم للشوكولاته والعلكة، يعتبر الأول من نوعه، ألقى الجنرال كلمة حول أهمية المصنع للبلد والمنطقة، ثم أشار إلى التنمية ودعم الانتاج، والتربية السوية لأطفال لن يحرموا بعد اليوم من هذه المخلوقة المحببة لهم «الشوكولاته»، إنهم اليوم يتمتعون بما تمنى آباؤهم أن يتذوقوه، وتحدث عن الاستقلال الاقتصادي، وارتباطه بالتربية، في المجتمعات النامية، وانعكاسات كل ذلك على إنسان الغد.

وتوصل في النهاية إلى أن المصنع يسد فراغاً كبيراً كنا نعاني منه، في معركتنا لتعزيز اقتصادنا وترسيخ دعائمه وتوفير الرفاهية للمواطن، والمنعة واستقلال القرار للوطن، وبذلك نكون خارج هيمنة الاحتكارات الأجنبية وضغوط الغرب.

إلّا أن الصحفي المكلف بتغطية المناسبة، وجد أن نشر مثل هذا الكلام في الصحيفة سيكون نكتة ـ لا سيما وأن الصور التي التقطها المصوّر أظهرت الجنرال متحمساً كما لم يكن في أي من صوره، وعلى الرغم من أن الصور بالأبيض والأسود، إلا أن الذي ينظر للصورة يرى حمـرة خديِّ الجنرال واندفاع الدم في عروق رقبته.. ولكن جملة الجنرال الأكثر حضوراً كانت تلك التي تؤكد على أن الشوكولاته والعلكة عنصر صمود في المعركة.

عاد إلى الصحيفة وكتب الحديث على مسؤوليته الخاصة.. حول أهمية إقامة المشاريع الصناعية، مهما كانت صغيرة.. لأن البناء الاقتصادي كل متكامل.. وسنسعى لتحرير إنتاجنا من التبعية للسوق الأجنبية باقامة المصانع، لأن كل مصنع هو لبنة أساسية....

لم يذكر العلكة في المقال كلّه.. وقد وافق رئيس التحرير على النص

وأدخل بعض الاضافات التي تنقل الكلمة من حيز الشوكولاته والعلكة إلى أفق عام يتعلق بالتنمية، ولم يفعل ذلك إلّا لأن الجنرال أوحى له في إحدى المقابلات ان يتصرف أحياناً فيما يقوله لمصلحة البلد، وكان مطمئناً إلى ثقة الجنرال به.

* * *

كان رئيس التحرير نائماً في اليوم التالي.. حين رن جرس الهاتف.. هبت زوجته وهي تتمتم: اللهم اجعله خيراً.

رفعت السماعة.

مكتب الجنرال معك.. الأُستاذ موجود

: ارتعبت.. لأنها تعرف أن هذه الاتصالات الصباحية تحمل الشر دائماً. معناها أن هناك مصيبة.. هناك خطأ.

أيقظت زوجها الذي قفز كضفدع.. ولكن فُتات النوم ظل يتساقط من عينيه كتلاً صلبة.. لا تلبث أن تطير حين تصل الأرض.

: حاضر سيدي

كان المساعد الخاص على الخط

: أريد أن أسأل.. من قام بتغطية افتتاح الجنرال للمصنع أمس؟

: هل ثمة خطأ سيدي في التغطية؟ هؤلاء الأغبياء يفضحوننا دائماً سأطرده!

: إنني أسألك.. من قام بتغطية الافتتاح؟

: صحفي جديد سيدي اسمه..

: لا يهم اسمه.. الجنرال يوصيك أن ترسله دائماً لتغطية أخباره.. لقد وصفه بأنه ولد فهمان يلقطها على الطاير..

: حاضر سيدي

وفي اليوم نفسه تم اغلاق بقية الصحف لمدة أسبوع بقرار من مكتب الجنرال شخصياً، بسبب التقصير في التغطية، والغباء، والتشويه

الذي لحق بخطبة الجنرال، وصدر بيان يؤكد ويطالب باعتماد النص الحرفي الذي نشرته صحيفة «الحقيقة الحلوة».

* * *

لم يستطع رئيس التحرير التقاط شيء مما يقوله الجنرال، صرخ الجنرال: أين ذلك «الولد» الذي يغطي اخباري؟

جاءت كلمة «ولد» توبيخاً شديداً لرئيس التحرير، لا توبيخاً للولد..

: مسافر سيدي

: مسافر؟.. أين؟

: خارج البلد؟

: كيف؟

لم يستطع رئيس التحرير الاجابة على السؤال.. ظل صامتاً.. بيده، أشار إليه أن يغادر الغرفة.. بقرف.

تجاوزت الساعة منتصف النهار.. لمحها الجنرال وظل يواصل دورانه مطارداً الفكرة، مثلما يطارد إنسان ما ذبابة مزعجة.

* * *

أصبح الوقت ثقيلاً في غرفة الانتظار، تأمل أحمد الصافي الجدران، الوجوه، المروحة المسطولة المعلقة في الهواء الفاسد، المتدلية من السقف وكان معلقاً أيضاً، حاول أن يبحث عما تقوله ملامح الناس، تلك عادة يحبها ويستخدم كثيراً مما يراه في قصصه، لمح فتاة تضحك وهي تهمس لأمها قال: الناس يستطيعون الضحك حتى هنا.. ابتهج.. سرت ابتسامتها في جسده، استراح.. أحس أنه هو الذي يضحك.. هو الذي يهمس.

نظر حوله بعد استغراق طويل.. فوجيء أنه أصبح الشخص الوحيد في القاعة انسل الناس أو استلَّهم الصوت القادم من السماعة الرديئة في واجهة القاعة، واحداً.. واحداً.

عادت الوحشة فألقت بسياطها على روحه، وأطبق الضيق بذراعين

وحشيين على عنقه. ليس هناك من صوت سوى هدير محركات السيارات الخاطف وهي تعبر الشارع المجاور.

* * *

اشرقت ملامح الجنرال.. صمت كامل افترش المدى والوقت.. هدوء لم يتوافر لتولستوي حين كتب «الحرب والسلام».

تحركت فيه الرغبة لقضاء حاجته، حاول أن يؤجلها، ولكنه لم يرد تشتيت أفكاره في أية مسألة.

كان يريد أن يكون صافياً تماماً.

فتح الباب.. خرج.

خلفه مساعده الخاص.

- أين الحَمّام؟

- أين الحمام؟ صرخ المساعد الخاص، ولم يكن حوله أحد.

هبطا الدرج. المتكومون في الداخل سمعوا وقعَ أقدام واثقة.. هبّوا فرحين: لقد مرّ كل شيء بسلام.. لقد نجحَ الجنرال أخيراً.

قفز رئيس التحرير من بينهم.. احتشدوا بباب القاعة.. مرّ الجنرال بقربهم متشامخاً.. دوى تصفيق حار، معتقدين ان الجنرال سيغادر الصحيفة: ابتسم لهم.

أومأ المساعد الخاص لرئيس التحرير.. اقترب.

- أين الحَمّام؟

أشار إليه..

وانطلق رئيس التحرير خلفهما.. دخل الجنرال، ووقف رئيس التحرير مثل حارس يقظ أمام الباب.

يبدو أن المسألة كانت مستعصية هنا أيضاً.. إلا أنه خرج.. خرج أخيراً.. لم يصفق أحد هذه المرة.

وصعدا الدرج.

* * *

أخذ نفساً عميقاً، دلالة الرضى، احتل الكرسي.. اعتدل اتخذ هيئة كاتب محترف، يده على خده.. القلم في يده ـ تذكر صورةَ الشاعر أحمد شوقي الشهيرة. ولكنه عندما همَّ بدخول البياض كاتباً، اكتشف أنه نسيَ ما يود قوله، في انشغاله بجلسته، نسيَ الجملة الافتتاحية المتعلقة بأهمية السلام للشعوب. بحث عن تلك المسودة لم يجدها، لا بد أنه كورها وألقى بها باتجاه الساعة.

صرخ.. لحظة وكان مساعده الخاص بين يديه، كان يريد منه أن يبحث عن الجملة المفقودة، تذكر أنه نسيها، صرفه، اندفع باتجاه الكرات الورقية المتناثرة يبحث عن الجملة جاثياً على ركبتيه.. وجدها أخيراً، أخذ نفساً عميقاً، ساعد في اندفاع صدره وسطوع نياشينه. عاد إلى الطاولة كتبها: السلام مطلب إنساني أولاً وأخيراً. حاول كتابة جملة أخرى مستعيناً بكل قواه.. لم يستطع.

هتف: ليتني استطيع الكتابة مستخدماً الدبابة لا القلم.. نعم ليتني استطيع.. كنت سأكون على أقل تقدير بمستوى فوكنر، ولم يكن يعرف من فوكنر شيئاً، ولكنه ما أن سمع اسمه على لسان مساعده الخاص الذي طلب منه تقريراً عن أهم كتاب العالم حتى توقف أمام اسم فوكنر، له رنين.. رنين خاص. فوك.. نرررررررر.

مضى باتجاه الباب.. فتحه.. صفقه بعنف، خرج.. تبعه مساعده.. الحراس.. ومن الطابق الأرضي أطل رئيس التحرير برأسه، كأرنب عقب عاصفة.

أخذ الجنرال مقعده في السيارة.. كان الهدوء المنتشر يساعد في اتقاد لهب آب أكثر وأكثر.. توقف رئيس التحرير حائراً حين دفعه أحد الحراس بعيداً عن العربة.

قال لمساعده الخاص، الجو غير مناسب أبداً للكتابة في مبنى الصحيفة.. إن رائحة العفن تفوح من حبر المقالات السخيفة التي يكتبونها فيها. إلى «المكتبة الكبرى لإنسان الأمة» هناك جو العلم والأدب.. هناك فقط.

* * *

انتفض المساعد رعباً.. حين انطلق قافزاً الدرجات ومبعثراً الهدوء، طالباً اخلاء المكتبة بناءً على طلب الجنرال، فانسل روادها على رؤوس الأصابع تتابعهم عيون البنادق، واتسعت عيناه أكثر وهو يقفز من شباك الطابق الرابع للمكتبة الكبرى ليُخلي الشارع المحاذي لها. والمكتبة في وسط المدينة، حيث الضيق وانعدام الهواء، وظهيرة مجنونة. وعربات.. حيث الحديد أكثر من اللحم لكن ذلك لم يكفِ.. اندفع ثانية وخلفه الحراس باتجاه المحلات التجارية. باعة مواد البناء، والفلافل، والتلفزيونات الملونة، سينما الشعب، والمبولة العامة، أكشاك الصحف، محلات النوفوتية، وأحذية الشعب المغلقة لأنها علقت يافطة بالأحمر العريض عن حسن قصد كُتب عليها «أحذية الشعب تهنيء الجنرال بحلول شهر رمضان».

حظر تجول كامل.. سَحبُ سائقي العربات من داخلها بعد اطفاء محركاتها، وملاحقتهم في صعودهم للتلال وهم يجرون على أربع.

دفعه الجنرال من كتفه.. اهتز، سقط على حجر، أو أرتطم جبينه بحافة مغارة الضبع، عاد إلى صحوه.. حمد الله.. ولكن الخوف ظل يعصف به..

انطلقت عربة الجنرال عبر شارع «التحرير» انعطفت باتجاه شارع «المجد» ثم شارع «النصر»، «فالحرية»، واجتازت الشارات الضوئية عند تقاطع شارعي «الشعب»، بشارع «الجنرال»، الاوتستراد الأكثر اناقة واتساعاً في البلد كله، ثم مرقت العربات بحي «الجنرال»، وهو حي كبير سُمّي باسمه تخليداً للمذبحة المعروفة التي قام بها قبل سنوات وذهب ضحيتها ما يزيد على ألفي قتيل من سكانه، ولتجاوز أبعادها في قلوب المذبوحين تزوّج الجنرال واحدةً من صبايا الحي، التي لم تزل على ذمته حتى الآن.. وعاهدهم أن ينجب من اتحاد سلالته بسلالتهم ما يعوضهم.. ويدمل جراح الماضي. كانت عربة الجنرال تشقّ المسافات في حين تتقافز فيه عربات الناس مذعورة.

رنّ جرس الهاتف في السيارة المصفحة، رفع مساعده السماعة ناوَلَهُ إياها: السفارة الأمريكية معك سيدي.

دهش الجنرال.. السماعة في أذنه!!، جاء الصوت حازماً، مؤنباً.. مُطَمْئِناً، غاضباً: طوقنا الموضوع.. هذه المرة مرت بسلام. لا داعي للاعتذار عبر الصحف، وكما يقول مثلكم «مش كل مرّة بتسلم الجرة».

تنفس الجنرال ملءَ رئتيه.. اندفعَ صدره.. سطعتْ النياشين كما لم تسطع في أي يوم. ابتسم.. ابتسم المساعد.. والسائق المرافقون.. ولويت أعناق السيارات في منتصف طريق «الغضب الساطع» عائدة إلى شارع الجنرال.

* * *

كعادتها.. حين تصحو تلقي نظرة سريعة حولها في غرفة النوم، ثم تخرج إلى المطبخ فتلقي نظرة أخرى.. تتوجه بعدها إلى المكتبة تلقي نظرتها الأخيرة قبل أن تمضي إلى المغسلة. لكنها عندما وصلت إلى المكتبة وقفت بقامة صنمية، تحدق في فراغ هاويةٍ لا يدركها النظر.. كان اللون الأسود يغطي الأرضية جافاً بلا حياة. يلطخ الرفوف.. يدفع الكرسي المقلوب إلى عمق الزاوية القتيلة، تجرأت.. دخلتْ.. حاولتْ تلمّسَ هذا الليل المندلق على كل شيء.. هل هو الليل.. ينسى قطعةً من جسده في غرفة بعيدة على طرف الضواحي المتعبة.. ويرحل. كان هذا وحده التفسير اللامنطقي الذي يُصدَّق. كانت تريد أن تتأكد مما ترى.. امتدت أصابعها تتحسس الجثة المجبولة بأسئلة الفَزع الأسود. تجاوزت فوضى الطاولة، على طرفها، كانت المحبرة فاغرة عينها الوحيدة.. شفافة كأنها غُسلت جيداً. للّون الأسود رائحة.. فجرها احتكاك حذائها المنزلي بالأرضية. إلى الرفوف صعدت، مذبحة غريبة، الخشب ملطخ، والكتب التي رتبت بفوضى فوق بعضها بيضاء.. كيف؟

أفرحها أن تجد مساحة بيضاء.. أفرحها أن تجد الكتب قد خرجت سالمةً من هذا الدمار.

لكن.. ما الذي حدث.. الليل.. أحمد يأتي متأخراً.. ململة الصغير في السرير.. تذكرت الصغير، كان يقف خلفها عند الباب دهشاً، صامتاً، غير مدرك لشيء... ومن يستطيع أن يفهم هبوب الخراب على غرفة ضيقة في ضاحية متعبة. الأسئلة تطلّ برؤوسها الصغيرة من داخل التفاصيل، صار لخطوتها الصغيرة وقع معدنيّ قاتل، حاولت أن تلتفت للصغير بالباب تطلب منه أن يظل بعيداً، عن دائرة الوقت السوداء التي تنشر ثوانيها وتطلقها مثل رؤوس سهام وحشية.

تذكرت أحمد.. في الأيام الأخيرة.. بعد خمس سنوات من الزواج، كانت تريد أن تقول له أن حياتها سوداء.. كما لم تكن في أي يوم.. سوداء مثل بحر من الحبر.. أو بيضاء مثل صحراء ثلجية.. لا فرق.. وكانت ترى ما لا يصدق بسهولة. سحبتها المساحة البيضاء من الكتب نحو حضورها ثانية.. امتدت يدها امسكت بكتاب اسئلته بيد مرتعشة.. ألقته في راحة مرتعشة.. فتحتْ الكتاب من منتصفه.. ضربت أجنحة بيضاء كفيها.. وأعقبتها عاصفة من الريح التي ولَّدَها الخفقان المجنون.. ارتد رأسها إلى الخلف في حركة عفوية، اندفع الكتاب باتجاه صدرها.. صحراء بيضاء أُخرى.. وريح.. كانت تأوي إلى نفسها.. يأوي الكتاب إليها.

هدأت العاصفة.. عادت.. جدقتْ في الكتاب.. بسطتْ يديها.. فتحته من جديد.. بياض.. بياض.. بياض.. بياض..

كان السواد والبياض يتبادلان لعب دور الرعب، وهما يعلنان تناقضهما.. يعلنان تداخلهما.. انفصالهما..

أمتدت يدها إلى رف آخر.. تناولت كتاباً.. قدرتْ للحظة أنها قرأته.. رواية.. قلبت صفحاته بسرعة، لا شيء يؤكد أنها قرأت هذه المساحات المطفأة الجرداء.. الصقيعية.

هل هو الكابوس.. يغادر الاغفاءة ليشق هيبة الصحو، ويتركها ذابلة.. جاء صوت أبنها: ماما انتشلها من بئر.. استدارت اليه حملته.. خرجت.. تاركة للأسئلة حرية الانفجار وتدمير هذا الدمار.

عندها أفاق أحمد الصافي والدوي يأخذ بكيانه.

* * *

حاول أن يخفف ثقل الوقت الضاغط على كتفيه.. اكتشف أنه غير قادر على الحركة.. كل هذه الساعات الفارغة أُعدت له.. المقاعد الفارغة.. مكبر الصوت.. الهدوء الحلزونيّ على الجدران، طحالب الهواء الساكن المتدلية من السقف، الذاهبة في الرئتين.

يكره الانتظار. في البعيد البعيد رأى صحيفة، لم يرَ الصحف هذا اليوم، جمعَ دمه ليقف.. سار باتجاهها.. أحس أن ظهره قطعة من مسند المقعد الطويل.. المقعد الجماعي، الشبيه بالقبور الجماعية، كانت الصحيفة ملقاة هناك في أقصى القاعة.. خطا باتجاهها.. لكنه فوجيء بوجود أكثر من صحيفة.. عشرات.. ملقاة كيفما أتفق. كل صحف البلد كانت هنا، يحضرها المراجعون معهم لقتل الوقت القاتل، وحين تتفجر حروف أسمائهم مختلطة بخشخشات مكبر الصوت الصارم، يتركونها مفتوحةً عند الصفحة التي كانوا غارقين فيها.. بريد القراء، الصفحة الملونة، حظك اليوم. مقال الأسبوع، فلسطين المحتلة..

صحف.. صحف.. صحف.. صحف.. أسعده ذلك.. التقط عدداً منها. عاد إلى مكانه.. كان يمكن أن يجلس في أي مقعد يريد.. ولكنه لم ينتبه لهذه المسألة.. عاد إلى مكانه.. وكأن كل المقاعد لما تزل محشوةً بأجساد البشر.. وعرقهم.. بخوفهم.. بترقبهم بضحكاتهم.

تنبه.. إنه عاد إلى مكانه.. فجأة ـ تأبط الصحف.. بحث عن مقعد آخر.. كلّها متشابهة.. نسخٌ متكررة، أعجبه أحدها!، خطا باتجاهه، كانت كمية الضوء الساقطة عليه من ضوء الساحة أكثر قوة.. إنه قادر على أن يأخذ المقعد الذي يشاء، في الركن الذي يشاء.. حيث الضوء، خطر له أن يجلس على كل المقاعد، مثل طفل ترابي يجد نفسه وحيداً في مسرح كبير ممتليء بالكراسي الزاهية.

كان يهبط برضى، ليحتل المقعد.. وهناك في منتصف المسافة، قبل

أن تلامس مؤخرته خشبَ المقعد.. هبت عاصفة من الخشخشات. عرف مصدرها ثم جاء الصوت صارماً:

ـ أحمد... عُدْ إلى مكانك.

* * *

في الأقبية الشبحية الحالكة.. مرّ الصوت، محاولاً أن يقتحم باب غرفة التحقيق. ليختطف روح الفتى المستند إلى الجدار الملطخ برذاذ الدم.. كيف لا يصحو الجدار حين ينتشر كلّ هذا الرذاذ على وجهه.. كيف لا يصحو.. ولكن سعداً.. وجد لعبة يتسلى بها، كان يتابعها من شق صغير بين انتفاخين يحاولان الالتقاء واحد يهبط من حاجبه والآخر يصعد من خده.. لعبة جعلته يضحك مرتين بصوت عال وهو يتلقى اللكمات الخاطفة المتقنة حيثما اتفق..

حوله كان خمسة من حملة العصي الرشيقة اللاسعة.. وسادسهم مسؤولهم.. بعد أن يقتطعوا من لحمه الكمية الكافية لارهاق عضلاتهم وشهوة عصيهم، كان الأنيق يتقدم.. هكذا لقَّبُهُ سعد، فيوجه لكمة صائبة إلى الجسد الدامي.. ويرجع ثلاث خطوات إلى الوراء، يسوي ربطة عنقه.. قبةَ سترته الزرقاء.. يشدها إلى أسفل لتنهدل على جسده.. فيتقدم حملة العصي يأخذون حصتهم من الدم.. ثم يتقدم الأنيق فيكرر المشهد مثل دمية الكترونية.

ضحك سعد مرتين.. فأعتقد المحقق أنه يهلوس، الخطوات متقنة.. متساوية محددة، نمطية، يزيدها اندفاع اليدين باتجاه ربطة العنق ثم قبة السترة الزرقاء.. وشدها إلى الأسفل بعد ذلك، جلالاً، كان أشبه بموظف منافق مؤنق من الدرجة العاشرة يطلبه رئيس مجلس إدارة.. فيقوم بتلك الحركات المعروفة قبل دخوله المكتب الواسع.

نسيَ سعد الجلادين.. لم يعد يراهم.. اختفوا تماماً.. لأن عينه لم تعد ترى سوى الأنيق تتابعه.. تترصد كل حركة من حركاته.

لملم الحروف الممزقة عن شفتيه الممزقتين.. طارتْ ابتسامة من

داخله افترشت الأجزاء الواضحة من قسماته خلف الدم الأخضر.. فالتقى الانتفاخان ببعضهما لحظة..

: تشبه اللعبة الألكترونية

: ماذا؟ صرخ المحقق

: حركاتك.. حركاتُ لعبة.. هل لاحظت ذلك.. لعبة جيدة.. ولكن أين صنعت؟!

انتبه الأنيق لأول مرة أن حركته آلية.. ولكنه قبل أن يدرك ذلك.. وجه لكمة قاسية إلى سعد. عاد ثلاث خطوات، إلّا إنه تعثر هذه المرة.. لم يعد قادراً على ضبط حركته كل شيء أصبح مُربكاً بالنسبة له.. الخطوات.. اللكمات. ربطة العنق.. السترة.. أصبح مشغولاً بحركته الآلية أكثر من أي شيء آخر.. مثل ذلك الشيخ ذي اللحية الحمراء.. حين قال له رجل.. كم هي جميلة لحيتك أيها الشيخ.. ولكن قل لي.. حين تنام هل تضعها تحت اللحاف أم فوق اللحاف فارتبك الشيخ لأنه لم يكن قد انتبه لذلك قبلاً.. قال: لست أدري والله.. ولما حانت ساعة النوم، وهبط الليل سباتاً، ألقى الشيخ اللحاف على جسده وغطى لحيته.. تذكر سؤال الرجل.. فأحس أن الأفضل وضعها خارج اللحاف، وهكذا فعل.. إلا أنه بعد دقيقة قال: لا شك إنني كنتُ أضعها تحت اللحاف.. لأنني لم ارتح وهي فوقه.. فأعادها حيث الدفء.. فاكتشف أن حرارتها تلهب صدره.. فأعادها للخارج..

والحكاية أو الطرفة تقول إن الشيخ لم يستطع النوم تلك الليلة، ولم يستطع النوم بعدها.. لأنه بات مشغولاً بوضع لحيته..

وبعد أيام كان الحل الوحيد لبقائِه على قيد الحياة.. لكي لا يموت إرهاقاً واصلاً الليل بالنهار والنهار بالليل.. أن يجتث لحيته.. وهكذا كان.

تذكر سعد الحكاية وضحك.. غادرَ المحقق الغرفة.. عاد حملة العصي للظهور ثانية واحتلال المشهد، انطلقت صرخة ملء الممر الشاحب للقبو وزادته وحشة.. تابعت الأذيق وهو يختفي في اللانهاية.. أطبقت على أذنيه كقبضتين هائلتين، فأحس أنه تلاشى.

كانوا يجرونه باتجاه زنزانته بقدميه الميتتين، شبه غائب عن الوعي، ولكنه ما أن وصل إلى الزنزانة الأولى، حتى أدرك أن ثمة من يراقبه من داخلها.. ويحتاج إلى ومضة أمل، رفعَ رأسه في لحظة خاطفة وانتصب، وبدأت عيون السجناء تَخْضَر وهو يمر أمام الكوى خاطفاً كالبرق، تلك هي الرسالة البسيطة التي يمكن أن يكون لها فعلها الكبير.. نعم.. انتصب يا سعد.. وأسكب كل قوتك في قدميك، فلتغرسا في الأرض، وارفع رأسك عالياً واثقب السحب، ولتشتعل عتمة الزوايا، حيث ينتظر الجميع أدوارهم..

كان يهتف لروحه.. أو تهتف له..

ولكنه عندما وجد نفسه وحيداً في الزنزانة، أحس بألم لا يطاق، وبقهر لا يوصف، فأسلم نفسه لبكاء هادىء عميق..

* * *

ستصرخ فتنة: لم أعد أطيق.

وستطبق بصراخها على سكينةٍ هشة: سنرحل.. هكذا ببساطة.. لا نستطيع أن نواصل العيش هنا، لقد فعلت الكثير من أجل إزالة آثار الحبر عن الجدران، عن المكتبة عن الكرسي وعنك!

سيرحل الحبر معنا ـ سترحل البقع السوداء على الجلد، سيرحل القط الأسود المنفجر في حاوية القمامة، سترحل الشلالات وتتابعنا الملابس، ملابس الجريمة.. سترحل صرخة تهدم السكينة فوق رأس الصباح، نافذة لضوء مقيد على جدار، جنرال سيرحل، وليلة طويلة، طفلها، أين طفل الليلة الطويلة الآن، أين أصبح.. سترحل الذكرى، الدم مكبر الصوت، صحفٌ، بشر، فراغ، حرية في مقعد.

هل ابتعدت تلك الأيام.. إلى أي مدى.. هل بعدها حددته السنوات؟ أم هذه المسافة الشاسعة بين تحليقة طائر ودبيب العادة على أرض باردة.

* * *

جلسا بعد يومين في قاعة النادي.. معه أحد أصدقائه.. وكانت

صامتة.. ترتشف القهوة وهدوء الساعة الخامسة الغافي على الشرفة فجأة قالت: الليلة حلمتُ بك.

- ماذا؟

- حلمت بك

- كيف

ارتبك.. تمنّى لو أنه قال لها أي شيء غير «كيف» هذه.. ارتبك صديقه.. تصبَب عرقٌ غزير دفعةً واحدة.. كأنَّ جبينه انفتح.

قالت: حلمتُ بك.. مثلما تحلم أية امرأة برجلها.

- تعنين...؟!

- نعم.. كنت رائعاً.

وظلت تتحدث هادئة

تزعزع ثانيةً.. بحث عن ردٌ.. ماذا يقول رجل لامرأة تقول له «حلمت بك.. وكنت رائعاً».

نهضَ صديقه مفسحاً المجال لهما.. أو هارباً

قال لها: شكراً

قالت: كيف تشكرني.. إنه حلم.. ولم أفعل.. أو تفعل شيئاً في الحقيقة.

قال: ولكنك قلت لي إنني كنت رائعاً

قالت: في الحلم.. أنت مجنون!

تساءل: ماذا أقول الآن؟

قالت: كن أنت

قال: أكون مجنوناً.. يعني؟

قالت: ولِمَ لا

* * *

كان يمتلك جرأة الحرف. وكانت «فتنة» تمتلك جرأة الفعل، نعم ذلك الشيء الرائع لا ينسى حَمَلته بين يديها ذلك اليوم وزجته في الياسمين

وصدرها، أوقدت خلاياه كلّها وفتحتها الواحدة تلو الأخرى، ثم عبرت المدينة تقود السيارة.. وهو إلى جانبها.. دخلت تلك الأحياء الصغيرة التي تبين فيما بعد أنها كانت تطالب بتحسين أوضاعها ومنحها السماء الكافية لتحليق الحرية والحياة، ولكنها لم تكن وطأت ترابها. المساء وسحابة غبار وعربة تتوقف في ساحة ترابية واسعة.

مالت عليه وقبّلته.. وسيظل يذكر كيف أن نصف جمجمته الأعلى طار، وسيظل يطير كلما أحس بدفء الذكرى يسري في دمه. معجزة الفتنة. لم ينطق اسمها إلاّ حين ذهب ليخطبها.. وبعد ذلك ظلت فتنة. ولكنها امرأة المتناقضات تصحو فتوقد العالم حولها.. وتنام كقتيل.

قالت: نعيش هنا.. ولِمَ لا.. وكانا في الحارة الترابية
ولكنها كانت تتواطأ دائماً مع الوقت لتتسلل عبر دقائقه وتبتعد.
حنينها في رحيلها، ودون أن ترحل.. كانت ترحل.

وكل الأشياء ترحل في مدينة ضيقة غير قابلة للانفجار، والمدينة ليست مريم ليست ذلك الجسد المهيأ كوليمة في قاعة المؤتمرات، في الليلة الطويلة.. الأصوات تأتي من بعيد مختلطة بارتطام آلات التصوير ببعضها، هذا الايقاع الفوضوي الخاص، ذو الرنين الخاص، الجميع على أهبة الاستعداد أو الانقضاض بعدساتهم على الجسد، الجسد الملقى كوليمة في قاعة المؤتمرات، جراح طازجة وأخرى قديمة، جنرالات، عدسات تصوير، جنرالات بكامل أوسمتهم، أوسمة على الياقات، على الصدور، والأذرع، على العباءات المقصَّبة. والجسد مهيأ كوليمة في الداخل.

أصوات الأقدام تأتي، تأتي مختلطة، مختلطة بأصوات يعرفها، يتفقد قميصه، عند الصدر، يتأكد من أن الياقة محكمة، والكُمَّين، كان يخشى، أن يتفصد جسده عرقاً لاهباً في هذه القاعة الملقاة هنا، الممتدة حتى عتبات كل البيوت، كان يخشى أن تظهر عندها بقع سودٌ، أن يذوب الثلج ويظهر ما تحته، أن يثور الحبر ويفضح ما فوقه، عيناه مرهقتان مثل جرح متقيح، ويداه تقبضان على صحيفة ما، كان يقرأ، واكتشف أنه لم يقرأ شيئاً.. كان يمخر عبر سطور سوداء لحبر أسود أفزعه أنه تحلل بين

أصابعه، فغدا كفاه أسودين، تعب، ولكن لم يكن ذلك السواد الجنوني الحالك مثل هزيمة. فرك يديه بأقصى ما يستطيع من سرعة، كان يريد أن يتخلص من آثار الجريمة عليهما، من صدى الجريمة في كفين مرهقين، والأصوات كانت تقترب، تتقدم نحو القاعة.

ويعبر الجنرال، كان أحمد الصافي يجلس في القاعة مهياً كضحية، ولحظةٍ مقفلة بلا مدى، عبر الجنرال الباب الخشبي فتأرجح خلفه، ثم عبر مساعدوه، دهش الجنرال، كان لا بد أن يدهش، تم الأمر بدقة كما لو أن مصادفة عجيبة زرعت جذورها في خطوة عابرة، توقفت، فرأت السر فجأة.

غضب الجنرال، التصق به مساعدوه يرتجفون، تبعثروا، اقترب من أحمد الصافي، الارهاق حوّله إلى مشنوق كامل، تعبت جثته من فرط ما علقتْ بالحبل وتأرجحت، كان يتأرجح، هزَّ الجنرال رأسه خجلاً، وكان مرتبكاً، وقف أحمد الصافي حائراً. اقترب الجنرال منه، عانقه بحرارة، سيحدث ما كان يخشاه طوال اليوم، سيتفصد العرق ويفجّر بقع الحبر النائمة، سيقتلعها، وستطفو على القميص، القميص الأبيض، والبنطال، وتتسلل إلى ثياب الجنرال. في هذا العناق الطويل، ستلوث ملابسه أوسمته، وربما سيتفصد عرق الجنرال فيسفر عن شيء آخر تحت ثيابه، يفضحه، بقع من دم مثلاً، تطفو على ملابس الجنرال تخترق الكاكي المُسلّح، تبتلع النياشين، دماء ربما، تقطر، تنساب إلى أرضية القاعة، أرضية الكون، ويختلط الأسود بالأحمر، «ما في حد أحس من حد»، لا.. هناك دائماً من هو أفضل، ظل الجنرال يعانقه بحرارة، فوخزه أحد الأوسمة الكبيرة المعلقة على صدره، كان يريد أن تنتهي اللحظة بسرعة، ولكنّه ظل دهشاً في حضرة العناق، الجنرال يعانقه شخصياً، يقابله شخصياً، الوسام يغوص في أسفل الصدر أكثر، يثقب القميص الأبيض يتسلل إلى بقع سوداء، يثقبها، ستنفجر مثل البلالين. تقدُمُ الوسام يتوقف، ثم يُستل بعيداً.

: لا تقل لي إنك هنا منذ الصباح، ارجو أن تسامحنا أستاذ أحمد، حقك عليّ، عليّ شخصياً، التفت إلى مساعديه، من الحمار الذي ابقى

الأستاذ أحمد منسياً هنا؟.. هل تناولت طعاماً.. لا لم تتناول، من الحمار الذي ينسى أحد أهم عقولنا الصحفية هنا، أنت ثروة إنسانية لنا أستاذ أحمد، أعجبُ كيف يبددونها هكذا.

الجنرالات يتدافعون، آلات التصوير تُطلق فحيحَها المعدنيّ، حيث تُحشى بأفلام جديدة، فحيح يشبه ارتطام باب الزنزانة بحلقه، مثل احتكاك قفل وجنزير بالليل، الطاولة في الداخل كبيرة دائرية.. وتتسع لعشرين جنرالاً بكامل أوسمتهم، كان الجسد ملقىً على غير سجيته، جراح.. دم.. شعر مقيد في هواء مقيد لا يصل الريح. ستسقط الستارة عما قليل، وتنجلي مريم، تتجلى، تسقط العيون دهشةً على المشهد بكامله.

أستاذ أحمد أكرر اعتذاري شخصياً، أمسكه من يده، وضعَ يده في يده، مثل صديقين يلتقيان فجأة، ويختصران الماضي في دقائق، صعد الجنرال الدرجات دون أن يترك يد أحمد تفلتُ منه، عرق غزيرٌ، عرق غزيرٌ تدفَّقَ من بين الأصابع، تساقطَ على طول الممر حيث تزرع خطواتُهم الوحشة، الجنرال وأحمد والمساعدون. عرق له رائحة غريبة.

- اغبطكم أستاذ أحمد ككتّاب. كان يريد أن يقول أحسدكم.. أقتلكم - كيف تقبضون على عنق الكلمة مثل الفحول، فلا تستطيع معكم حِراكاً، لقد قرأت مرة أن أجدادنا في الجاهلية كانوا يطلقون على شعرائنا الجيدين لقب الفحول لأنهم يمتلكون قصائدهم كما يتملك الفحل أُنثاه.

ومريم كانت على الطاولة. تنتصب الستارة، وخلفها البياض بكامله بياض الكفن يشرع باب القاعة، يندفع الجنرالات نحوها، الآن فقط يستطيعون القول إنهم يمتلكونها، حولهم المساعدون، الحرس الخاص لكل منهم، الذين يتبادلون ضرب بعضهم بالأكتاف، مصورو محطات التلفزيون، الصحف، الأقمار الصناعية، عرب سات، المذيعون.. الاعلام العالمي كله.

يتقدم أحد الجنرالات، الأكثر أوسمةً، يُمسك بحبل الستارة، يشده إلى الأسفل تنفرج عيون عدسات التصوير، تلمع الأضواء من كل جانب،

برقاً مجنوناً، تتطاير الأكف صوب بعضها مصفقة بحرارة يهتف الجنرال حين يعم الصمت ويصبح بئراً بلا قرار:

- الآن أُقدم لكم الشهيدة.. بكامل جراحها.

وانتزع الكفن بحركة رشيقة مدربة.

لماذا تحضر الليلة الطويلة.. لماذا لا يحضر طفلها في هذه اللحظة، حاول أن يتذكر بقية القصة، قرأ يوماً أن القاص المصري يحيي الطاهر عبد الله كان يقرأ قصصه غيباً في الندوات، مثل راوية شعبي، حسده، أو غبطه، كان يود أن يذهب أكثر في التفاصيل الصغيرة، يتذكرها، لأنه بحاجة إليها الآن، كما لم يكن في أي يوم مضى.. كان العرق ينساب من بين الأصابع يختلط بخرير شلالات حبر حاقدة.. ستحاول فتنة إزالة آثار البقع، ستحاول، عن الجدران والطاولة وعنه، وتقول سنرحل من هنا.. سنرحل اليوم، قبل الغد، ويقرران إغلاق باب غرفة المكتبة، حل وسط يرضي الجميع، هكذا نستريح، سنكتفي بالغرفة والمطبخ، لا لن أسمح لفتنة أن ترى البُقع على جسدي، سأغسلها وحدي، هذه سأغسلها وحدي. وسأدعي انني متعب، مريض، إلى أن تزول آثارها، ولن أقترب منها، سأطفىء الضوء قبل أن اخلع ملابسي، واندس في حضنها كقطعة من الليل لا ترى.

افلتت يده، زلقت، فأصبحت حُرّةً، ارتطمتْ بشيء حاد في جيبه، فَرِحَ، مفتاحُ المكتبة في جيبه، تذكر ذلك فَفَرِح.

: أستاذ احمد سأدعوك الليلة للعشاء، هنا، كان بودي أن نذهب إلى البيت أو إلى أحد المطاعم الفخمة، ولكن الأعمال صعبة، يجب أن أُتابع كل شيء، خطوة خطوة هنا، مسؤولية الحفاظ على البلد. ان تكون جنرالاً معناه أن تكون عيناً بلا جفنين، لا تستطيب النّوم، وغير مسموح لها به.

: لا بد أنك جائع الآن.

- أرجو أن تسمح لي بالعودة.. لا بد أن زوجتي قلقة عليّ، وطفلي ايضاً.

- عذر مقبول.. طفلك كم عمره؟
- ثلاث سنوات ونصف السنة.
- زوجتك تعمل؟
- نعم
- عذرك مقبول، عاد الجنرال يردد، ستظل الدعوة قائمة.. أعتذر مرة ثانية على الازعاج الذي سببوه لك، أؤكد لك إنني سأعاقبهم، أيّة أُمة هذه التي لا تدرك أهمية صحفييها الكبار.

مرة أخرى يتعامل معي كصحفي، صحفي فقط، هي مقصودة، الجنرالات ليسوا أغبياء كما نتصور.. مقصودة.

استدار الجنرال نظر في وجهه مباشرة، ولكن باتجاه الأعلى، الجنرال كان قصيراً، والصافي كان طويلاً، كرجل جبلي، كانا في الممر ما زالا، عانقه ثانية، فعاد الوسام وغاص في أسفل صدره. وضغط الجنرال.

: سامحنا

ثم طلب من مساعده الخاص أن يوصله إلى البوابة ويودّعه هناك.

* * *

الليل يمتد بجراح باهتة، والمدينة نصف نائمة كعادتها، نصف غائبة، كان يود أن يُشعل الفتيل ويفجرها مرةً واحدةً، لكنه كان يعرف أنها مدينة من ديناميت مبتل، تلزمها شمس كبيرة.

كان يبحث عن سيارة ما تقلّه، الثامنة مساءً، الشوارع فراغ، ابتعد كثيراً عن مقر الجنرال، الثامنة والربع، لم تَلُحْ عينا عربةٍ في هذا الليل الباهت، كان يلتفت خلفه.. رأى شخصاً في البعيد.. يركض.. يقترب.. يركض وينادي، وكان الليل ينقل الصوت صافياً فيصل.

أنت

أدرك أنه واحد من حراس مقر الجنرال، هل يريدون اعتقالي.. ما هذه اللعبة التي يلعبونها معي، حين أعتقد أن كل شيء انتهى، أكتشف أن شيئاً لم يبدأ بعد. قتلي؟

تمنّى أن يركض ولكنه كان تَعِباً. كان الركض عقوبة أكبر من الموت في هذه اللحظة. لذلك قرر أن يتوقف.

وصل الحارس: أنت.. ما اسمك؟

: أحمد الصافي.

الجنرال يقول لك: غداً ستشربان قهوة الصباح معاً.

أوشك على الانفجار، انفجار يقتلع هذه المدينة، هذه المدينة المبتلة بدنياميت مبتل، يريدونني منهاراً.. لعبة القط والفأر.

مضى في الطريق، لم ينطق بكلمة، مضى، تذكر الصحيفة، عليه أن يكتب المقال، عليه أن يعود إلى البيت، مبنى الصحيفة أقرب، انعطف في شارع آخر يتجه إلى الصحيفة.. أكتب المقال أولاً.. ولكن ما الذي سأكتبه.. وظل يسير باتجاه الصحيفة، لحقته سيارة ضالة في هذا الليل الضال. توقفت.. انطلقت به.

* * *

تذكّر الصرخة التي جاءت من القبو، حضرت بكامل مداها، ماذا تكون؟ اكتشف أن حاسته القصصية بدأت تستيقظ، قال سأكتب قصة بعنوان «الصرخة» بذلك أردُّ على الجنرال، أنا لست صحفياً في الأساس وسأبقى قاصاً حتى النهاية، «الصرخة» صرخة يسمعها عددٌ من الناس في قاعة انتظار، وكل منهم يرى فيها شيئاً مختلفاً، يتقاطع مع حالته الداخلية، أسباب وجوده هنا، صرخةٌ عابرة تهز قاعة مليئة بالبشر.

تنبه إلى أنه أُرهق أكثر مما يجب، ساءه ذلك، تذكّر أحد أبطال قصصه.

سأل: كيف أقبل أن أكون أقل منهم؟

* * *

الجنرال في مكتبه.. دخل عليه مساعده.. نتائج التحقيق سلبيّة سيدي، لم يبق لدينا ما نفعله غير الضرب، إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا أكثر من ذلك، إلا إذا كان هناك قرار بأن نقتله.

* * *

دار النهار دورتين، والليل لما يزل في أثره.. الوقت خطوة في ضباب كثيف، فكل شيء غارق في الشحوب، شحوب الممرات، الصرخات والعزل عن تدفق نهر الضوء حتى من طاقةِ زنزانةٍ، جسد في الداخل يرمم أجزاءه المتبعثرة، يلملم جراحه، كان الزمن ضائعاً في الزنزانة، وأن يترك يومين هكذا بلا أسئلة، بلا سياط، بلا عصّي، معنى ذلك أنهم انتهوا منه أو أوشكوا، كان سعد يستعيد ما فقد عنه، يستعيد الدم النافر على الجدران، صرخة الألم من السقوف المقيدة، وجه صديقه؟ ما الذي حدث له.. : كل هذا الصمت المعرش حوله ينذر بالشر، الجرح كان بسيطاً، بسيطاً لا يمنعه حتى من عبور بقية الصحراء والليل.. واجتياز ذلك الكمين:

- توقف وإلا أطلقتُ النار.

من يستطيع أن يتوقف، من يستطيع أن يهرب، قيل لهما قبل البدء بتنفيذ العملية، تحاشوا أي اشتباك مع جنـدي عربي.. هدفكم واضح ذلك المعسكر فقط.

الوقوف كان يعني السقوط في القيد. والهرب يعني السقوط في الغياب، في الطلقة. واللغةُ العربيةُ الآمرةُ، أصبحت على فم الجندي، كرشاشهِ، لا يصيب الهدف بدقة، إلّا حين يستدير للوراء.

- توقف وإلا أطلقت النار.. صعدَ الصوت ثانيةً من رئة الصحراء عميقاً.

معادلة صعبة في صحراء ليس فيها غير الرمل، رمل مفروط، عرضة للريح والعواصم، التعليمات واضحة.

«مهما حدث.. تحاشوا أيّ اشتباك».

ولذا فإن محاولة للاختفاء في هذا الرمل المفروط لا تضر..

ولكن.. كيف تركض في راحة جندي دون أن يراك؟: .. تذكر سعد الجسد الضخم الملقى على كتفه، نازفاً، لا يمكن إخفاؤه، قال نتوقف، فمهمتنا انتهت ناجحةً، ولا نستطيع أن نعود قتلى، نتوقف، كان الرصاص

قد دوّى فوق رأسيهما فمزق طبقاً هائلاً من الصمت والرمل يُسمّى: الصحراء.

اندفع الجنود من كل مكان.. أحاطوا بالجسدين المنبطحين على الأرض بحذر، أضاءت الكشافات وجهيهما.

: أية حركة.. نطلق النار.

وجهاهما في التراب والجرح ترابياً كان.. والوقت..

: استديرا ببطء.

وبكى جندي، فأطرق رشاشُهُ خجلاً، ذلك الجندي الذي أمرهما بالتوقف، جندي الحراسة الذي أمرهما بالتوقف.. بكى.. خجلاً.

- يا الله .. فدائيين..

صاح أحدهم.

وانخفضت الأسلحة واحداً بعد الآخر، جلل العار الصحراء، جللَ الجنود، والأسلحة.

اندفع أحدهم باتجاه الجريح مثل أمٍّ تحاول إنقاذ طفلها في اللحظة التي تعثَّر فيها، حملوه إلى المعسكر القريب، حيث كل شيء كان قد استنفر، سار سعد بينهم.. وتحول الخوف إلى زهو، وهو يراهم يتحلقون حولهما، يمطرونهما بالأسئلة: هل نجحت عمليتكم؟ كم جندياً قتلتم؟.. ما هي الخسائر؟ هل استشهد أحد منكم؟ كيف أُصبت؟ وظلّ حميدان، ذلك الجندي، جندي الحراسة، يسير في نهاية المجموعة.. أكثر خجلاً.

عمّت الحركة المعسكر كاملاً، اندفع بعض الجنود يحضرون الحليب، الخبز، الضمادات، الأدوية، الماء، الطعام، نسوا أدوارهم المعدّين لها، أو تناسوها، فَرِحين كانوا، لم يدركوا بعد ما حدث، ما سيحدث، وظل حميدان خارج الخيام، هل كان يدرك ما سيحدث قبل حدوثه، ناداه أحد الجنود..

- يا حميدان.. تعال.

ولكنه كان خجلاً.. لم يستطع الحركة، لم يستطع الدخول.

حميدان عرف أنه هنا منذ عشر سنوات، وهذه هي المرة الأولى التي يطلق فيها النار، وإذا به يطلقها حيث لا يُريد..

: يا حميدان.. تعال..

لم يدخل.. ظلّ هناك.. قطعة كئيبة من الليل الصحراوي.

في الخيمة كان الحب، يتجاوز الأوامر العسكرية وينفيها، وفي الخارج، في غرفة اللاسلكي كان الواجب العسكري.. ينفي كل شيء، لقد تمهّل قائد المعسكر قبل أن يبلغ الجهات الأعلى، تمهل أكثر مما يستطيع، وجاء الصوت عبر الأجهزة.. عبر ليل الصحراء.. عبر رئتي حميدان: ابقوهما.. وانتبهوا جيداً، نحملكم المسؤولية الكاملة بشأنهما.

أدرك حميدان أنهما سيكونان بعد قليل في قبضة قاسية، وتمنى لو أنهما استطاعا الإفلات، كما أفلت غيرهما. دخل عامل اللاسلكي..

قال: يريدونهما.. وهم في الطريق الآن.

عم الصمت.. وفي لحظات اختفت أكواب الحليب، الطعام، وأُهيل التراب، على الضمادات لتبدو قديمة، لم يبق من المعاملة الطيبة الأولى شيء، وعاد العار يجلل الجنود.

* * *

كيف يحضرون بهذه السرعة؟ كيف؟.. كأنهم كانوا في المعسكر، لا خارجه حضرت عربة ورجال أشداء مربدُّون، انطلقوا صوب الخيام، اختفت عيون الشابين خلف عصبتين سوداوين، كالساعة السوداء التي أطبقت على قلب العريف حميدان.. فانطلقت طلقة.. واحدة فقط، اندفع الجنود يركضون صوبها، كان حميدان قد فارق الحياة.. صاح أحدهم حميدان انتحر.

انتحر..

.. انتحر..

دارت الكلمة في ليل الصحراء الموحش.

قال قائد المعسكر.. الرصاصة انطلقت خطأ.

دارتْ الطلقة التي اخترقت رأس حميدان، وظلّت تدور، وأدار السائق محرك السيارة القادمة، ودارت العيون تحت العصبتين السوداوين، في حلكة الزمان والمكان، كانت العصبة هي الزنزانة الأولى..

وآخر ما تبلغه العين من مدى.

* * *

دخل «الأنيق» التفتَ سعد فرآه واقفاً أمامه، كأنه هنا منذ ألف عام، حجراً مقدوداً من موجة الارتباك.

أخذ الأنيق مقعده.. اتكأ على الطاولة الخشبية، هل يصدأ الخشب؟ لا.. ولكن الصدأ كان يغطي هذه الطاولة، وما لبث أن امتد وعبر كفيّ الأنيق نحو بقية أجزائه..

: ما الذي يفعله أكثر من ذلك؟

إذا كانوا يريدون قتله.. فإن ذلك سهل.. لقد قتلنا رفيقه، لقد مات رفيقه متأثراً بجرحه، جرح في القدم؟، قطع عليه نصف الصحراء، لذا.. كان لا بد أن يموت، التقرير الطبي يقول: الوفاة نتيجة تسمم خطير في جرح قطعي عميق بالقدم.

بدأ الأنيق يعمل بنشاط داخل الجرح.. يشقّه، فيستجيب اللّحم بصعوبة، لحمُ شابٌ متماسك، كان يود أن يذهب بعيداً في التمزيق، قيل له: ركز على النقطة الضعيفة في المُعتَقَل.

ولم يَرَ الأنيق غير الجرح، النقطة الضعيفة الوحيدة، بعد ليلتين، طائشتين من التحقيق، كان الجرح يتسع أكثر وأكثر.. والصراخ يرتفع كلما دبّ الصحو في جسد الجريح، فأحس أن الجرح أصبح أكبر منه، تناسى الأنيق أناقته، ربطة العنق تدلت مثل أنبوب المص داخل الجرح.. ركض في الدم تجول استراح، تعب، وظل الجرخ يتسع، ولم يتسع فم الجريح ليسمح بمرور كلمة واحدة كان يصرخ فقط.

وعندما اكتشف الأنيق أن الجرح أصبح أكثر اتساعاً مما يتصور، شمَّر عن ساقيه وساعديه، وألقى بنفسه وسط بحيرة دم واسعة، حاول الخروج. تسلّق حافة الجرح.. ثم تسلق مَرة ثانية وثالثة، نجح في النهاية، استلقى لاهثاً على الأرضية منهاراً تماماً.. وكان الجريح قد مات، مات تماماً.

* * *

كان سعد يحدق فيه.. وهو يحدق بيديه.. محاولاً الخروج من بحيرة الدم، اكتشفا أنهما يتبادلان النظرات، كيف التقيا في نقطة واحدة.. هي قطرة دم في جرح مفتوح؟

نهض الأنيق ودار دورتين.

وقال: إعترف وأرحني!

قال سعد: بماذا أعترف.

قال الأنيق: قل أي شيء..

قال سعد: سأعترف.. رغم كل شيء ما زلت أحلم.

كان المحقق يريد أن ينقض عليه بلكمة أخيرة، احتل الارتباك خطاه.: عاد وجلس..

عاد الصمتُ فاحتل كل شيء بينهما.. صدأ الطاولة، صدأ الأسئلة، ارتباك المحقق، شحوب غرفة التحقيق.

بعدها سقط رأس الأنيق على الطاولة..

ونام..

نام تماماً.

* * *

لم تجد فتنة سبباً في أن يقوم أحمد بالكتابة في المطبخ.. ولم تجد سبباً يُفهم لاغلاق باب المكتبة بكل هذا الاحكام.

بدأ يكتب ويكتب، وحتى.. وسط بحيرة حيرتها لم تجرؤ أن تسأله لماذا تكتب هنا؟

قال لها مرّة، حين دخلت المكتبة.. وكان غارقاً في إحدى قصصه: .. أحبك.. ولكن لا تعيديها.

وأوضح: ربما هناك سبب وحيد يجيز مقاطعتي أثناء الكتابة.
قالت: ما هو؟
قال: الحرب العالمية الثالثة.

وفي الليل حين كان يحتضنها قال: أن يمنعك شخص من الكتابة في اللحظة التي تريد، أشبه ما يكون بأن يُصب الباطون في فرج إمرأة قبل ولادتها مباشرة.. ولم تعد تقاطعه.

* * *

كان يكتب وكأنه ينتقم.. ولذلك لم تجيء القصة بالمستوى الذي يريد، ولكنه كان يود أن يردّ، ويرد بسرعة.. نشَرَها بسرعة.

قال الجنرال: أرى أنك بدأت تفيد من لقاءاتنا معك.
- ماذا تقصد؟
- قصتك الجديدة.
- أخيراً اعترف الجنرال أنه كاتب قصة.. سرّه ذلك.

- لقد فكرت.. ما دمت تفيد إلى هذا الحد.. فسنُكثر من هذه اللقاءات.

فَرِحَ الجنرال بالإصابة، كانت مباشرة، حيث اهتز الجسد أمامه ترنّح.. ولم يبق سوى أن يسقط..

كان في رحلة صحراوية، سيارات الجيب الإنجليزية تنهب الرمل بعجلاتها، كان الغزال أمامه مباشرةً، مراوِغاً، أطلق النار فلم يصبه، وأطلق النار ثانية وثالثة ولم يصبه..

ولم يجرؤ أحد أن يصيب الغزال الذي لا يستطيع الجنرال شخصياً أن يصيبه.

أطلق من جديد.. ثم صرخ.. أحضروه لي فوراً.. أريده. بعد يومين

من المطاردة كان الغزال حياً بين أيدي حراسه ومساعديه، في الممر الطويل الطويل أمام مكتبه حدق في الغزال، كان نظيفاً، بريئاً، متعباً لا يستطيع الوقوف فحوافره ذابت أثناء المطاردة.

قال الجنرال: أنتَ؟! وكان ينظر إلى الغزال باحتقار.

هتف: الآن إلى الصيد.. تبعه حراسه ومساعدوه.. ذهبوا في الصحراء أبعد من المعتاد، حتى لم يعد هناك صحراء في العالم أمامهم. وكأنهم يقومون بأقسى رحلة صيد في حياتهم، وفي نقطة بعيدة لمح الجنرال شجرة غريبة ووحيدة.. وَصَلوها.. فقال هنا نتوقف.. نزل الجنرال.. قال بمرح: الآن يبدأ الصيد.

هبّ مساعده الخاص فأنزل الغزال، ربطه بالشجرة، تناول الجنرال البندقية، صوبها إلى الغزال، أطلق رصاصة واحدة، قفز الغزال في دمه..

ثم قفز الجنرال فرحاً..

ـ أصبته.. ومن الطلقة الأولى..!

ثم التفت إلى حراسه ومساعديه وقال..

ـ رحلتنا اليوم موفقة.. الآن نعود

وعادوا.

* * *

يا أحمد.. أنت أهم بكثير مما تعتقد. ـ كيف أدرك الجنرال ذلك، كيف لم تكتشف أمه هذا ، يجب أن تكون في المكان المناسب، إنك الآن أشبه ما تكون بنهر ضائع في الصحراء، لنعمل سوياً، وبصورة عملية من أجل مواطنينا، وإذا لم يدرك هذا إنسان وطني، أصيل، مثقف مثلك، فمن سيدرك، لا تكن سلبياً على الدوام، ما الذي يمكن ان تفعله بأمسية تقرأ فيها عدداً من قصصك؟ صدقني.. لا شيء.. المهم في هذا العصر هو العمل..

يومها كان قد وصل إلى نقطة الانفجار: سأضع قنبلة وأُفجر المبنى بمن فيه.. بذئابه وشياهه..

: يا أحمد جاءه صوت الجنرال - إن كل وسائل العمل ضدنا لم تنجح.. كلها كنستها الريح، ونحن بقينا، تجاوزنا كل العواصف الدخيلة لهؤلاء الذين يدَّعون أنهم الوطنيون وحدهم، حتى أنهم يئسوا، تصوَّر.. إن الوضع وصل بهم قبل أيام، إنهم تقدموا بطلب للسماح لهم بتنظيم مسيرة سلمية وصامتة، هل تلاحظ. «صامتة» إلى السفارة الأمريكية احتجاجاً على الدعم المتواصل الذي تقدمه لإسرائيل، بعد قيامها بتسميم ٩٤٣ شخصاً في الأراضي المحتلة، وظهور أعراض وبائية خاصة بين طالبات المدارس الثانوية.. يقولون أن التكنولوجيا الأمريكية وراء الحادث.. رغم أن التقارير العلمية تقول أن ذلك راجع للقلق النفسي الجماعي بين مجموعة من الناس تتعرض لضغط مستمر في ظروف الاحتلال، ليس هذا ما يهمنا يا أحمد.. إن هؤلاء لم يعودوا قادرين على التنفس إلا إذا قدموا طلباً.. ولكن أصارحك.. أن ما يزعجني حقاً هو أنهم ما زالوا يجرؤون على تقديم طلب كهذا!

* * *

هبط الجنرال درجات القبو.. قبو الممر الطويل واللانهاية.. منزعجاً من تلك الصرخة التي أصبحت قصة.. منزعجاً أكثر من القصة، كيف يستطيع العكر تحويل هذا الصوت الممطوط الفَزِع إلى حكاية.. تذكّر.. محاولته لكتابة اعتذار، واخفاقه.. فازداد غضباً.. عبرت الإيقاعات الواثقة للخطى الممر باتجاه غرفة التحقيق.. حيث سعد، اقتربت.

- سأحطمهما الإثنين.. الكاتب والقارىء.. أخيراً سأحطمهما أشرع باب غرفة التحقيق ودخل.. كان سعد واقفاً هناك مستنداً إلى الحائط، وكان الأنيق نائماً.

فُجع الجنرال، ليسَ هناك كلمة تُلخص الهزيمة في تلك اللحظة، إلا الفجيعة.. المحقق نائم.

ولم يصح المحقق رغم أن الأصوات الصادرة عن الجنرال والمساعدين توقظ الميت من موته.

اقترب الجنرال من المحقق. هزّ كتفه..

- يكفيك نوم.. حبيبي.. استيقظ.. لا تكن كسولاً.. واستيقظ المحقق. يقظة لم يستطع النوم بعدها أبداً.

* * *

رحل آب.. ودخل أيلول وأطلّ تشرين أول والـدورة دائـرة، انتهى التعذيـب في القبو، وظل أحمد أسير القاعة. أحياناً يأتيه الأمر في آخر الليل: مطلوب غداً، أحياناً يتبعه رجل بملابس مدنية نصف نهار، أو نصف ليل، ثم يحاذيه أخيراً ليقول له وهو يمر بجانبه دون أن يتوقف: لا تنس أن تمر غداً.

وأحياناً يطرقون الباب ليلاً: ستشرب القهوة صباحاً مع الجنرال.

* * *

ضحك أحمد الصافي مرة واحدة.. ضحك كثيراً حتى اجتمع الحراس، واندفع الجنرال عبرَ الممرات صوب القاعة.. هستيريا الضحك.. هيروشيما الضحك:

قال: هذه القاعة هي بوابة البلد.. نعم بوابة البلد، واستدعائي طوال هذه المدة يومياً، ليس سيئاً إلى هذا الحد..

: لماذا؟

: لماذا يا أحمد؟

: لأنني بغير هذه الطريقة، لم يكن بإمكاني أن أتعرف على كل سكان «هذا البلد» وعاد يضحك.

أطبق فم هائل على أعصابه.. وتسلّقتها طحالب مجنونة.. أحس أن المكان رطب.. وأن العفن بدأ ينخر جلده.. جلده.. تذكر البقع السوداء.. لم تعد كما كانت في البداية.. لقد بدأت تتلاشى تدريجياً.. بعد أسبوع سيكون بإمكانه أن يخلع ملابسه في الضوء ويصعد طرف السرير ويلقي بنفسه مثل سباح في حضن فتنة.. عارياً.. عارياً.. كورقة بيضاء لم يمسسها سوء.. أسبوع وينتهي كل هذا القرف.

كان ما يزال طليقاً في هستيريا الضحك..

عرف الجنرال مصدر الضجة.. استدار.. عاد.. قال لمساعده الخاص: هاتوه.

وكانت عدوى الضحك قد عصفت بالبشر المتراصين في القاعة.

ضحك

هستيريا

هيروشيما

الضحك

ضحك

لم يعد يحتمل أكثر من ذلك.. ما الذي يريدونه.. لا شيء.. مناقشات سخيفة في مقالات أصبحتْ سخيفة.. مقصقصة الأجنحة.

مرة يقول لك الجنرال: لماذا لا ترى إلّا الأشياء السلبية، ألا يوجد شيء إيجابي واحد تكتب عنه.. في زاويتك «الحقيقة المرة.. والحقيقة الحلوة» لماذا تكون مُراً دائماً؟

ومَرةً يقول لك:

يا أحمد.. ما هذه الهرطقات.. تطالب بإنشاء مكتبات عامة في كل المناطق.. وتنسى حقيقة أن الناس لا يقرأون.. أتريدنا أن نبدد أموالنا على المظاهر؟

إن إقامة سجن جديد يعزز الأمن عندنا ويفيد المجتمع أكثر من إنشاء مئة مكتبة.. يجب أن تفهم.. الشباب يحبون الأفلام الهندية وأفلام الكراتيه ولا يحبون.. صاحبك هذا.. ما اسمه؟.. آه.. فوكنر.

* * *

قال الجنرال: ما الذي يضحكك إلى هذا الحد.. تراك تسخرُ منا.. أم ماذا؟ أحمد.. لم نعد نحتملك.. تعرف أن بإمكاني دائماً أن أغلق الدنيا في وجهك.. انشغل أحمد في مسألة «باب الدنيا».. أين يوجد.. قفله.. المفتاح.. العتبة.. العرض.. الارتفاع.. وحين يُغلق باب الدنيا في وجه الإنسان هل يكون خارج الدنيا.. أم داخلها.. وكيف يستطيع الجنرال

الوصول - وهو بهذا القصر - إلى المفتاح.. كيف سيديره.. وعاد صوت الجنرال: نعم، بإمكاني أن أُغلق زاويتك.. صحيفتك.. والشارع الذي تمر فيه.. المدينة والبشر بإستطاعتي إغلاقهما، أطرد امرأتك من عملها.. وطفلك من روضته.. طفلك.. تذكر طفلك على الأقل وارحمْهُ.... ما أسمه؟

كان الجنرال قد سأل عشرات المرات عن اسمه؟.

- فارس

- نعم تذكر الصغير فارس.

فكّر في كل هذا وأحضر غداً.. أُريد إجابات.. أُريد إجابات.

* * *

في الصباح نهض أحمد الصافي مبكراً.. هذه عادته منذ زمن.. يصحو قبل زوجته.. ينسل من فراشه، ويدخل ملابسه كسلحفاة. يحشر جسدَهُ في القوقعة.. في القمصان ذات الأكمام الطويلة.. التي لم يكن يطيقها قبل صيف.

وتقول فتنة: لديك قمصان.. نصف كُمٍ.

يقول: طقس هذه السنة عجيب.. ترى الفصول الأربعة في يوم واحد.

انسلَّ بعيداً.. دخلَ المكتبة.. تصفَّح الجدران.. يبدو ان الحبر بدأ يتلاشى تدريجياً.. عاد وأغلقها.. تسلل إلى الحمام، وأشعل الضوء.. ألقى نظرة سريعة على جسده.. بعد أن خلع ملابسه كلها.. استيقظت فتنة.. واستيقظ فارس سمع صوتها تحدثه.. لم تصل الكلمات كاملةً.. خرج مسرعاً يستحث الدقائق أن تعدو أن تفلت من مسارها لتشق الزمن بأسرع ما تستطيع. وكان هادئاً كما لم يكن في اي يوم من الايام..

خليطٌ من الهدوء والتوتر..

كان مُرعِباً

* * *

الجنرال يريد إجابة اليوم!!.. نظر إلى فارس.. للحظة كان سيقول لفتنة أنه سيصحبه إلى المدرسة.. ثم.. ثم يبتعد به.. لا لن يستطيع أن يفعل ذلك.. الطحالب تستطيع هذا الافتراس.. القطط تستطيع.. الكلاب ربما.. هو.. لا يستطيع..

تركها تأخذه.. قبَّله الصغير.. أحس أنها المرة الأولى التي يقبله فيها طفل.. وليس أي طفل.. طفله هو.. فارس.

تسلقتْ جسدَهُ كلُّ النباتات اللزجة.. أحكمت الحلزوناتُ لحمها فيه.. الدود.. العفن.. واشتعلتْ البقعُ تحت جلده.. عادَ إلى الحمام تأملها لم يستطع أن يجزم ان كانت بهتت فعلًا.. أم أنه يحاول إقناع نفسه ليستريح.. عاد وفتح باب المكتبة.. لم يعد ثمة شيء يمكن أن يتأكد منه تماماً.. عاد له صمته المرعب..

كان يمكن أن يتحدث ليكسر هذا الصمت.. ليهشمه.. ولكن لا أحد هنا. اتقدت عيناه تسمرتا في نقطة لا مرئية في فضاء غير محدد، مشى كالنائم.. دخل المطبخ.. استل سكيناً.. دسّها في الجورب الأيمن تحت البنطال. طرق باب مديرةِ الروضة.

- أنا أحمد الصافي.

- أهــلًا أستاذ.. فرصة سعيدة.. سعيدة جداً أن نراك.. هذا فخر لنا.. تفضل..

لا.. مضطر للذهاب.. ولكنني لسبب طارىء أريد أن آخذ فارس معي.

- لا بأس أستاذ أحمد.. فارس ولد فذ.. ذكي.. لن يضيره غيابُ يوم واحد.. ولدٌ معجزةٌ.

كانت كل كلمة تقولها المديرة تمزق لحمه.. وتنشرُ عظمَهُ.. كان يريد أن يتوقف سيل المديح.

فكّر أن يعود.. لا.. لا أُريده.. أريده..أُريده

- إنني مستعجل قليلاً.
- فوراً أستاذ أحمد.

- وجاء الآذنُ بفارس. كان الصغير يتقافز فَرِحاً. من تأثير أُغنية جماعية.

- قال للمديرة.. أرجو أن تحتفظي لديك بحقيبته.

على باب مقر الجنرال.. كان أحمد الصافي.. أشد إرعاباً في صمته، سأله الطفل في الطريق: إلى أين ستأخذني يا أبي.. قالها بفرح.

ثلاث سنوات ونصف.. عمر البراءة.. البراءة عمرها ثلاثُ سنوات ونصف السنة.. لا أقل ولا أكثر.

قال له الحارس: إلى أين.
- إلى الجنرال..
- ولماذا أتيت بهذا الولد.. ألا تعرف أن دخول الأطفال ممنوع..
- طلبني الجنرال.. ولا أستطيع تركه في أي مكان.

احتار الحارس.. نظر إلى الطفل.. صغير.. رفع السماعة وتحدث مع الجنرال: سيدي هناك شخص اسمه أحمد الصافي.. حضر..

- ...
- ولكن معه طفل صغير.. يقول إنه ولده.
- ...

سيحتار الجنرال. سيفرح.. سيحزن. قال أحمد الصافي في قاع صمته المرعب.

طلبه الجنرال فوراً.. فصعد..
: أعرف الطريق.. قال للمراسل الذي جاء ليوصله.. أعرفها..

في يده الطفل.. والطفل يسأل: إلى أين تأخذني يا أبي..

غرق المساعد الخاص في بحيرة الأسئلة.. طفل هنا.. هذه هي المرة الأولى.

هل قرر الجنرال استدعاء الأطفال أيضاً والتحقيق معهم؟.. الاحتياط واجب.. ودرهُم وقاية خير من قنطار علاج.

اندفع الجنرال صوب الطفل ما أن رآه يجتاز عتبة مكتبه.. أخذه بين ذراعيه رفعه في الهواء..

ـ طفلٌ عظيم.. جميل.. ألم أقل لك يا أحمد.. يجب أن تفكر فيه جيداً.. في مستقبله.. كيفَ سيدرس.. يأكل.. يعيش.

وظلّ أحمد الصافي صامتاً، وقد أتسعت دوائر الرعب الكامنة في عينيه..

.. عاد الجنرال.. وجلس خلف مكتبه..

ـ ماذا يشرب الوردُ.. ماذا تشرب؟

أتسعت دوائر الرعب أكثر وأكثر.. احتضن أحمد الصافي ولده.. نهض.. أبعد تلك الأدوات الصغيرة التافهة عن طاولة الجنرال، جانباً، الأقلام.. المحابر.. الأوراق.. الأضابير.. أخذ الطفل بين يديه.. وأجلسه على الطاولة.. كان الطفل مستسلماً تماماً.. لحظتها رأى أحمد الصافي لأول مرة نظرة خوف في عيني الجنرال.

قال: تهددني بقطعة اللحم هذه. وأشار إلى الطفل برأسه، بخبزه، بروضته،.. بأمه.. بي.. بالقاعة.. بالصرخة بباب الدنيا.. أليس كذلك؟

لم يستطع الجنرال الإجابة.. انعقد لسانه.. وتسمَّرَ في مكانه.. لم يعد قادراً على الحركة.

انحنى أحمد الصافي.. رفع طرف بنطاله.. تناول السكين.. استلها من الجورب.. سكيناً لامعاً كالبرق.. وكالبرق هوى بها على عنق الطفل.. فتفجّر الدم نافورة.. ظلت تعلو وتعلو حتى احتلت كل سماء المدينة.. وتساقطت غيوم الدم في كل مكان.. كل مكان..

بعد اليوم لن تستطيع تهديدي بشيء.

بعد اليوم.. أنا حرٌ منك.. من قاعتك.. لن تستطيع تهديدي.. لن..

سقط الجنرال.. لكن أحمد لم يستطع أن يَفرح بسقوطه.. فقد عاد ونظر إلى الطاولة.. فرأى الصغير هناك.. ينظر إليه نظرة مستسلمة عجيبة.. لم يزل بعد على قيد الحياة. حاول الصغير أن يسأل.. ولكنه مات.. مات هكذا ببساطة..

احتضنه بصمت مُرعب.. التفتَ إلى الجنرال.. وصرخ.. صرخ..

* * *

توقفتْ حافلة المدرسة الخاصة، هبط فارس فرحاً منها.. راقبه أحمد الصافي من خلف الزجاج الأسود، يتقافز بجذل واضح.. نفس حركاته عندما كان في الثالثة والنصف من عمره.. طروب.. مندفع.. تتغير ملامح كثير من الأطفال.. ولكن ملامحه ومنذ ولادته.. ظلتْ هي.. تندفع بشغب طفليّ نحو براءة لا نهائية.. نحو الطفولة الكاملة.

: قلتُ يكمل براءته في سنته الثانية.. ثم في الثالثة.. في الثالثة والنصف.. ولكنه ظل يصعد.. يشق قلبي كلما أطل.. لم أنتظر حضوره في البداية.. مثلما انتظرت أن يبقى في المكان الذي هو فيه.. في اللامكان.. الذي هو فيّ.. ولكنه أطل..

قالت فتنة: تحبه أكثر مما يجب.

«ولم تكن فتنة تحبه في البداية.
كانت تحس أنه قيدها.. فهي لن تنسى تلك الليلة.

قالت لأحمد: كن حذراً.. لأن احتمال الحَمْل وارد هذه المرة. ولكنه فجأة وجد الحل.. وهو يلهث فوق صدرها:

أن تحمل وتلد وترعى طفلاً.. سيطفيء ذلك الكثير من جمرها واندفاعها، هذا الاندفاع الذي لم يعد قادراً على مجاراته.

بعد الزواج بأيام قالت له: أتمنى الذهاب إلى أثينا الآن. وكان الطقس حاراً.

سألها: لماذا؟

وكان يتوقع عشرات الإجابات التي تبدأ بالأكروبلس وتنتهي بالجُزر إلا أنها قالت.. لأخلع «صدريتي» وأترك نهديّ حرين تحت القميص.

هكذا جاء فارس.. وظلت تحس دائماً أنه لجامها المتصل دوماً بذلك النتوء اللحمي لأحمد.

لكنها أحبته في النهاية.. كما أحبه».
قلت: كل الناس يحبون أبناءهم. وأنا أُحب براءته..

الآن تبدو براءته أصفى وأكثر عمقاً.. براءة بيضاء مثل جناح أبيض.. يشق غيمة بيضاء في سماء واسعة..

تساءلتُ دائماً أين تذهب براءته.. أين تصل.. ما المدى الكونيّ الذي يمكن أن تبلغه.

حاولت أن أتذكر طفولتي أكثر من مرة.. وحاولت أن أنساها مراراً، سأنساها ما هو المُفرح فيها كي أتذكرها.. كتبتُ ضدها.. أكملت دورتها الناقصة في «عيون الصقر» كل ما لم يكتمل في تلك الأيام البعيدة أكملته في «عيون الصقر»، عيون الصقر التي لم يكن يلزمها شيء لتعري العالم، مثلما يلزمها ـ فقط ـ ان تراه.. دوائر ناقصة تكتمل.. أحد النقاد اكتشف اللعبة.. ورأى الدوائر تكتمل.. كان ناقداً مبدعاً.. ولكنه مات أيضاً.

ويركض فارس ببراءة فرسه الأسطورية.. التي لا تهدأ، تساءلت كثيراً.. هل أخاف عليه حقاً.. أم أخاف على براءته.. وإلى متى سيبقى قابضاً على عنق الكون وقلبي دون أن يتغيّر، نعم للناس حق الحسد في هذه المسألة.

* * *

حدق فيما حوله.. ألقى نظرة سريعة وهو يتجه للباب.. لقد تمت

الأمور واكتملت بشرف دائماً.. كلمتان إثنتان لم تقلبا الدنيا.. ما زالت كما هي.. بل إنها أصبحت أفضل بكثير.. المهم ما في داخلي..

منصب «مدير التحرير».. منصب كبير.. في جريدة كبيرة: لم أتنازل.

ـ ولكنك دفعتَ الثمن.. تدفعه.. تكتب وتمتدح الجنرال يومياً. هل هي مصادفة أن تُكلف بكتابة كلمةِ الصحيفة يومياً.. الجنرال يراك في الحبر الأسود.. يراك أنت الغائب..

ـ ولكنني لا أُوقِّع باسمي.. ولو لم أكتب أنا لكتب آخرون يتمنّون ذلك.. هذا الجزء من عملي صنعة.. حرفة.. أما القصص.. فهي الأساس.

من يقول ذلك

ـ أنا..

ـ أنت.. أم الجنرال.

ـ المنطق؟

ـ المنطق؟

كان الجرس يرنّ طوال الوقت.. اندفعت فتنة باتجاه الباب.. في طريقها التفتت إلى أحمد قالت بعصبية.

: لماذا تقف هكذا.. ما لك؟.

* * *

نبح الكلب في الشرفة المجاورة.. في بيت الجنرال.. نبح مرة.. اثنتين ثلاثاً.. قبل أن يسمعه أحمد الصافي..

عبر فارس الممر حيث يقف.. احتضنه بين ذراعيه.. رفعه في الهواء.

: قبيح.. أن يكون لنا أطفال بهذه البراءة في زمن المذابح.

ـ يا أحمد.. حواري معك سيطول.. أو يقصر.. حسب إرادتك، أترى.. إنك حرٌّ. إرادتك هي التي تتحكم في طول اللقاء أو قصره.. لا

إرادتي.. أنت أكثر حرية مني. تصوّر. أعرف أن زيارتك لي ثلاثة أو أربعة أشهر قاسية.. أقصد قدومك وذهابك.. ولكنني - حتى - كنت على استعداد أن أصرف لك بدل تنقلات.

لولا الضغط الثقيل على أعصابه.. لتذكر أنه يستحق أفضل مما هو عليه الآن.. أفضل من «رئيسه هذا الذي قفز فجأة وإذا به يحتل عرش الصحيفة بين ليلة وضحاها.. إنه كاتب.. وكاتب معروف أكثر شهرة وأكثر موهبة.. ومن الطبيعي أن يكون في المكان المناسب.

ولكن «عيون الصقر» و «قامة الرمح» لما تزل تشده.

فقد الصبر مرات.. وفي مرتين ذهب في خياله أبعد من اللازم، فكَّر بتهريب حبل إلى القاعة.. ليشنق نفسه احتجاجاً.. بعد أن يكون قد كتب رسالة يوضح فيها ما حدث.. ما يحدث له.

يصعد المقاعد الطويلة.. بعد خلو القاعة.. من هذا الوطن، من الشعب.. ويعلق نفسه في حديد الطاقة العالية.. ربما لن تكون ميتة مريحة.. لأنه لن يتأرجح.. بل سيظل جسده ملتصقاً بالحائط..

أبعد الفكرة.

- قل لي أحمد: هل تؤمن بهذا البلد؟

- نعم.

- حديثنا في بدايته.. دعنا ننجز شيئاً.. نعمل معاً من أجل بلد أنت تحبه وأنا أحبه..

كان أحمد الصافي قد تَعِبَ.. وفكَّر مرتين بالانتحار.. قال: سأمضي في الحوار لينتهي..

- أحمد.. هل تؤمن بكل ما في هذا البلد.. لاحظْ كلمة «بكلّ».. جف ريقه.. هل يؤمن الجنرال بي؟.. المحقق ترفّع عن إيمانه بحشرة.. كان سيسأله هل تؤمن بي.. لم يجرؤ..

رد: نعم.. «نعم أؤمن».

انتظر أحمد الصافي السؤال التالي.. لكن الجنرال.. فاجأه.. قال.. شكراً.. أحمد.. من اليوم سنعمل معاً.. تستطيع أن تطمئن.. لقد انتهت مقابلاتنا..

ـ انتهت..؟ كيف؟.. لا.. لا.. لا يجوز أن تنتهي هنا؟

تجسد الكابوس.. فجأة.. طفت البقع السود، قفزت كأنها تنتعل أحذية زنبركية.. قفزت مثل طلقة.. تجاوزت القميص الأبيض.. السترة البيضاء.. تجاوزت كل شيء..

صُعق الجنرال.. صعق أحمد الصافي.

ضغط مفتاح الجرس الكهربائي.. وصرخ.. حضر مساعده الخاص..

قال: أوصل الأستاذ أحمد إلى المغسلة.

رأى المساعد الخاص البُقع.. نظر إلى الطاولة حيث قنينة الحبر.. وجدها ممتلئة، الجنرال يعبيء الحبر بنفسه في أقلامه.. مرةً قال لمساعده.. إذا ما عبأ لي أحد الأقلام فإنني أحس أنه يملي عليّ ما أكتب ـ نظر إلى يـدي الجنرال.. ربما رشقه بالحبر في موجة غضب.. كانتا ناصعتين.

احتل الفزع عيني أحمد الصافي من جديد. كان واقفاً وينظر إلى ملابسه، البقع أقل ظهوراً على البنطال.. كان كحلياً.

سار كالنائم خلف المساعد الخاص للجنرال.. ولكنه لم يستطع الدخول إلى الحمام.. لم يستطع أن يمنع قدميه من أن تواصلا المسير.. دخل المساعد الخاص أمامه.. انتبه متأخراً أن أحمد الصافي ليس وراءه.

ظل يواصل مسيره.. بلا إحساس.. باتجاه البوابة.. البوابة التي يعرف طريقها.. مخارجها.. ظل يمشي يقطع الشوارع.. يتجاوز العربات وتتجاوزه.. إلى أن وجد نفسه تحت نافورة بشعة في حديقة عامة.. الناس يحدقون به.. الماء غزير.. طعمه لاذع.. دار آلاف الدورات عبرالنافورة

مثل «افتتاحية» مكررة.. ولكنه أفاق أخيراً.. ركض باتجاه البيت.. لم تكن فتنة قد عادت.. لم يكن فارس قد عاد.

* * *

كل شيء سيذهب سدى.. كل شيء عرضة للريح.. لم يبقَ إلاّ أن تخلع بنطالك.. ورغم كل ذلك.. كل شيء سيذهب سدى..

دارت الشائعات قوية.. وكانت مدعمة دائماً بحجة دامغة.. أثبتها الزمن هل كان للجنرال يوماً.. جيران؟

كان الجواب دائماً: لا

ابتدأ الهمس يتصاعد بين الجارات بين أطفال «ضاحية الغابة»: سيقومون بترحيلنا فور انتقال الجنـرال للسكن في بيته الجديد.. وربما قبل ذلك.. وكلما كان يرتفع حجر جديد في بيت الجنرال.. ينهدم بيت في داخل واحد من سكان «ضاحية الغابة».. ولكن الغابة نفسها.. ظلت غابة.. اجتث الكثير من أشجارها.. وظلت خضراء..

: مسألة أمنية.. هكذا يقال.. ولكنهم سيعطوننا تعويضات، وربما إذا حالفنا الحظ منحونا أرضاً من أملاك الدولة.

بدأ الحديث في الضاحية.. وعلمت به الجاراتُ قبل أن تعرفه الصحافة، سألت فتنة ـ للمرة الأولى يعود خوفها القديم ونزقها ـ : هل صحيح أنهم سيقومون بترحيلنا من هنا فور انتقال الجنرال؟

قال لها أن الجنرال يحاول هذه الأيام أن يبدو أكثر شعبية.. وسكنه بين الناس في ضاحية مثل «ضاحية الغابة».. دليل أكيد على ديمقراطيته.

: قالت: حكيْ.. الناس يقولون أنهم سيرحلوننا.

ولكنني لم أسمع بذلك.

غضبت فتنة: لم تسمع؟ يبدو أن نساء الحارة يعرفن من أخبار البلد هذه الأيام أكثر مما تعرف الصحافة.

* * *

كانون ثاني لم يزل دافئاً على غير عادته.. انقلابات الطقس.. تُذكّر بالانقلابات العسكرية العربية في العقدين الماضيين.. تغيرت تضاريس الغيم.. تضاريس الريح.. شبت الغابة نظيفة..

كانون هذا العام.. مائدة مستديرة يجتمع عليها فرسان الفصول.. لا شيء يبقى على حاله..

لم يبق إلا أن تخلع بنطالك.

يركبونك كل يوم.. ولم يبق إلا أن تخلع بنطالك. يركبونك مثل بغل كسول.. ويستحثون كلماتك أن تكون أكثر حرارة.. يستحثونك أن تخرج إلى السطح وتكتب باسمك كاملاً «أحمد الصافي».

إذا كان ذلك ينقذ البيت.. سأكتب..

تحلّقوا حول الطاولة البيضاوية.. فتنة.. فارس.. وأحمد. كان الطعام جاهزاً.. أصناف كثيرة اجتمعت في ترتيب متقن. مثل افتتاحية مطبوخة بدقة.. مدّ أحمد الصافي يده باتجاه سلّة الخبز ـ رغم التغيرات كلّها. بقيت هناك عادة واحدة.. لم تمحها سنوات العز، سنوات العز التي تمثلت في اندفاع الراتب إلى أعلى درجة يمكن أن يبلغها راتب في صحيفة.. ووداع الحارة الترابية.. الغرفة السوداء.. احتجاجات فتنة وتأففها الدائم ـ عادة واحدة بقيت: أن يبدأ بالخبز.. وإلاّ يأكل شيئاً إلا بالخبز.. حتى أنه كان يمكن أن يغمّس الخبز بالخبز دون أن يشكو.

كان الصمت يذرع الغرفة.. غرفة الطعام.. الطاولة.. لا يبدده إلا ارتطام الملاعق بالصحون..

ـ في الماضي كنا نعرف كيف نُحبّ بعضنا.. وكيف نغضب من بعضنا.

ـ هل سنرحل من هنا.. سأل فارس.
أجاب أحمد قاطعاً: لا.

ولكن الأسئلة كانت تنهش أحشاءه.. هل سيذهب كل شيء سدى.

هل هي إشاعة.. مسألة الرحيل.. هل يطلقها رجال الجنرال.. لقد قيل لي أن الجنرال لم يزل غاضباً.. لأنني لم أكتب حتى اليوم كلمة واحدة وأوقعها باسمي.

سأكتب.. نعم سأكتب.. لماذا لا أكتب..

الفرصة مواتيةٌ له. لأن يقتلع كل ما بنيت، بكلمة واحدة.. وإذا أراد ألا يعوض عن البيت.. من يمنعه.. ثمَّ.. ثم إن التعويض غالباً ما يكون دون السعر الحقيقي.

عرضة لهبوب رياح الجنرال.. في هذه الغابة.. في كل غابة.. سنبقى.. كل عطاياه يستردها، هكذا، برمشة عين.

* * *

كان يصعد الدرجات باتجاه مكتبه في الجريدة.. في ذلك اليوم البعيد.. ليقرأ الصحف.. ويكتب زاويته اليومية..

أوقفه المدير الإداري.

أستاذ أحمد.. اتبعني..

تبعه..

وقفا أمام باب ثبتت عليه لوحة صغيرة.. كتب عليها بحروف سوداء أنيقة «مدير التحرير».

ارتبك أحمد الصافي.. وقبل أن يدخل شدّ المدير الإداري من يده.. سأل: .. أليست هذه لرئيس التحرير كما كان يقال؟

لا..

هل استحدثوا منصباً جديداً في الجريدة؟

أومأ إليه المديرُ أن يسكت.. فسكت..

أدار المفتاح في القفل.. دخل.. تبعه أحمد الصافي.

كل شيء طالعه جديداً.. الطاولة الكرسي.. السجاد.. دهان الحائط الأبيض.. آه الأبيض.. لوحتان متوسطتا الحجم، الأولى تمثل مجموعة من

الكلاب المفترسة تهاجم غزالاً.. والأخرى لوحة تمثل دونكيشوت يتبعه رفيق مجده سانشوبانزا.

قال المدير الإداري: هذا مكتبك.. من اليوم ستبدأ عملك من هنا..

تحركت فيه رغبة وحشية مفاجئة للتبول، لم يستطع مقاومتها.. امتدتْ يده إلى سَحّاب بنطاله، أمسك بعضوه.. كان محتقناً على وشك الانفجار، اندفع سيل جارف على سجاد المكتب، دخل أحمد الصافي اللعبة مثل طفل.. وجه سيلَهُ إلى الطاولة.. بدأت تغرق تحت اللون الأبيض المُصْفَر ودهشةِ المدير الإداري كل شيء اختلط بالبول.

ولكن مثانته كانت قابلة لأن تعطي أكثر وأكثر.. اتجه نحو الباب، خرج.. شاقاً طريقه بحربته المندفعة عبر ندائها الطليق.. ندائها الذي وجد نافذة يطل منها على كل هذا الخراب، عَبَرَ الممرات، المدير الإداري يتبعه، يصرخ، يهزّه ليصحو: أستاذ أحمد.. أرجوك.

قطع أحمد الممر الأول ثم الثاني فالثالث.. فالرابع، كان يطوف كاسراً قدسية الطواف.

أطلت الرؤوس من الأبواب، صرختْ عاملات الأقسام الإدارية والمطبعة، وظل الرمح مندفعاً في ثورته..

من أين يأتي كل هذا البول؟

استدار باتجاه البوابة الرئيسية، نحو الشارع الكبير، وقف في أعلى الدرجات، وهناك أطلق الرشقة الأخيرة على الجدران الخارجية للمبنى في حركة نصف دائرية، قبل أن يعود إلى مكتبه.

مكتب «مدير التحرير».

سأله المدير الإداري: أستاذ أحمد.. هل تحتاج شيئاً؟

ـ نعم؟!

ـ هل تحتاج شيئاً.

ـ لا..

وخرج.

* * *

قال الجنرال لمساعده الخاص: لقد اكتشفت إنني أضعت الكثير.. كان عليَّ أن أُلقيه في التجربة منذ البداية.. هناك نوع من البشر يأكله الحرير أكثر مما يأكله الصدأ.

* * *

بعد خروج المدير الإداري ظل واقفاً وسط الكراسي فترة طويلة.. يحدق في اللوحتين.. لم يدرِ كم مرَّ من الوقت.. فَرِح.. حزن.. احتار.. وظلّ واقفاً..

: قال.. من يستحق المنصب أكثر مني.. من؟؟ قال الجملة وكأنه يتحدى العالم ويدعوه لمبارزة.. مَنْ؟؟

عندها قرر الجلوس.. فرحا بمنصبه الجديد..

وعندما أخذ مقعده.. ارتفع وانخفض مرتين أو ثلاث مرات ليتأكد من فخامة الكرسي.. وعندما تناول الصحيفة ليطالع العدد الجديد، بعد أن شبع تأملاً، وأصبح بإمكانه أن يغمض عينيه فيرى هندسة موجودات الغرفة، دخل عليه المدير الإداري - لم يعرف إن كان طرق الباب أم لا - بين يديه شيءٌ ملفوف بأوراق وردية بعناية بالغة.. كان أشبه ما يكون بصندوق شكـولاته كبير.. من ذلك النوع الشعبي الذي يحمله الناس معهم حين يذهبون لتهنئة الطلبة الناجحين، والمرضى الذين عادت لهم صحتهم، والعائدين من السفر والحج سالمين.

تناوله من بين يدي المدير الإداري.. أدرك أنه لن يكون صندوق شكولاتـه أبداً.. كان ثقيلاً.

- بدأ بفض المغلف بهدوء وباتقان. اشتعل فضوله.. فمزّق الورق الوردي بسرعة.. عندها لمعت عينان يعرفهما جيداً.. توقف.. ولكنه عاد وأطلق لأصابعه العنان لتمزق الورق كاملاً.. فأطل الوجه واضحاً.. وجه الجنرال.

ابتسم المدير الإداري..

أستاذ أحمد، لقد أعددنا المكتب.. كل المكتب.. اخترنا اللوحات.. علقناها في الأماكن التي اعتقدنا أنها مناسبة.. أما هذه الصورة فنعتقد أنك أنت الذي يجب أن يختار المكان الذي تُعلّق فيه.. لذا أتركها لك..

وخرج.

* * *

نبح الكلب..

يبدو أن الجنرال تأخر اليوم في إحضار الطعام لكلبه.. بالأمس لم يحضر.. وقبله لم يحضر.. والكلب بدأ يقلق، بدأت أحشاؤه تتصارع في الداخل محاولة التهام بعضها بعضاً.

وكانوا يتناولون الغداء.

كم مرة فكر أن يقتل الكلب.. ولكنه للحظة بدا له أن مصيريهما مجهولان، متشابهان، أحس أن عليه واجب القيام بإطعام الكلب.. أن يقتطع له من حصته، أن يشرع الباب ويمضي إلى الشرفة.. حيث الكلب مربوط. ضرب على الطاولة.. فاهتزت.. الصحون.. الملاعق كؤوس الماء.. سلة الخبز.. فتنة وفارس.. قال: الكلب سيموت.

سألت فتنة: لماذا؟

قال: الجنرال مسافر.. كيف نسيت أن الجنرال مسافر. كان أحمد الصافي قد راقب الجنرال.. يغيب يومين.. ويحضر في اليوم الثالث.. والجنرال سافر أمس.. مساء.. هل من الممكن أن يكون قد أرسل الطعام سِرّاً إلى الكلب؟

ولكن الكلب ينبح.. نباحاً مجروحاً.

سألت فتنة ثانية أو رابعة: هل تعتقد أن الجنرال سيجعلنا نرحل؟.

ازداد تعاطفه مع الكلب.. حمل صحنه الخاص بما فيه، وقرر أن يغامر ويذهب.

فتح الباب.. خرج.. تجاوز عيون الجيران التي أطلت من الشبابيك.. صعد الرصيف الصاعد.. باتجاه بيت الجنرال.. أحس الكلب بالرائحة لا بد أنه أحس بها.. اشتد نباحه.. فازدادت خطواته اندفاعاً.. كيف يمكن أن يضحي الجنرال بالكلب.. كيف ينساه حين يسافر.. هل ينسى.. هل ينساني فيقتلع البيت.. هل ذهب نباح الكلب هباء؟

صعد الدرجات..

التقتْ عيناهما للحظة.. توقف النباح.. وتوقف أحمد الصافي. هل تعرفا على بعضهما أكثر عن قرب. صمتا.. كأنهما فهما بعضهما في هدوء النظرة الدامي.

بدأ يصعد الدرجات من جديد.
توقفتْ سيارة خلفَهُ.. انتبه.. توقف..
هبطَ المساعد الخاص للجنرال.
- هل قررتَ تسميم الكلب، أستاذ أحمد.
- لا.. خشيتُ ألاّ يحضرَ أحد لأن الجنرالَ مسافر.
- أستاذ أحمد اطمئن.. الجنرال لا ينسى كلابه..

* * *

تمنى ألا ينساه الجنرال.

* * *

عالياً دخلَ أحمد الصافي القاعة.. دقائق وتبدأ الأمسية، هذه الأمسية المعجزة، التي بذل منظموها الكثير من وقتهم وأعصابهم ومعارفهم من أجل الحصول على تصريح بإقامتها.

كم مرّ من زمن على إقامة الأمسية الأخيرة، هو نفسه لا يعرف، ولكن هذه الأمسية جاءت من حيث لا يدري، سقطت عليه من السماء حجراً حرك مياهه الراكدة، لم يكن يعرف هل يقبلها، أم يعتذر، لم يكن

لديه جديد يُقرأ، ولم يكن قادراً على تصور حجم الاقبال عليها.

حائراً دخل القاعة حيث رتبت الكراسي الحديدية، على شكل حذوة، حذوة حصان عملاق يطلُّ من أُسطورة. قلّة من الحضور، عددٌ ضائع في بيداء هذه القاعة الواسعة.. عالية الجدران مثل معبد قديم، شاحبة، تغالب الإنارة فيها فضاء مقيداً، فتبدو محتلّة بالغبار، قاعة تابعة لأحدى الجمعيات، جرت العادة أن تقام الأعراس فيها، أن يغني الناس، أن يرقصوا، ويزفوا شقيٍّ العالم إلى بعضهما، وبعدها يرحلون باسمين، منهكين، بأصواتهم المبحوحة، وأكفهم المحمرة.

* * *

جلس أحمد الصافي خلف الطاولة فوراً، فالكل هنا ضيوف، النادي الذي استأجر القاعة لساعتين من الزمن.. وهو.

مال عليه مدير النادي، قال: ننتظر ربع ساعة آخر، فالناس لا يعرفون هذا المبنى تماماً، لنترك لهم فسحة من الوقت كافية، لكي يبحثوا عنه ويصلوا.

بين لحظة وأُخرى، كان ثمة من يدخل، يحتل مكانه، ويجلس غريباً. أحمد الصافي وجد نفسه ـ فجأة ـ يحصي الحضور، قبل أن يكملَ توقف في تلك النقطة في تلك القاعة البعيدة.. لم يكن قادراً على معرفة عدد الناس، حيث الازدحام، والأجساد تحتك به من كل جانب، في قاعة «النادي الثقافي»، كان كلّاً منهـا يريد أن يأخذ جزءاً منه.. تغيّر الزمن.. نعم تغيّر.

تذكّر أن آخر قاعة رآها ممتلئة عن آخرها، كانت قاعة الانتظار في مقر الجنرال، حيث الشعب، كل الشعب، أية أُمسية تقام هناك ستكون حاشدة، أبتسم ولكنه حين تذكر أن كل شيء يتم بمقدار في تلك القاعة، الكلام.. الصمت الدخول.. الخروج، الترقـب، الوقت الزاحف كمشرط في الأعصاب. عاد ولملم ابتسامته.

كان أحمد الصافي يحاول إغراق نفسه بكل وسيلة، كي لا يصل

إلى ذلك السؤال: لماذا الأمسية في هذا الوقت بالذات؟ هل أعدوا الفخ له، ليعرفوا ما الذي سيقوله في اجتماع عام، ضحك.. أي اجتماع عام هذا، عدد الحضور لا يتجاوز عشرة أشخاص..، ضحك ثانية ـ ولم يعرف إن كانت ضحكته لم تزل في الداخل أم أنها طفت على شفتيه ـ حين تذكر أنه فعلاً اجتماع عام، ما دامت الأوامر والقوانين تحظر اجتماع أكثر من ثلاثة أشخاص، وتعاقب على ذلك بشدّة.

* * *

هل الأمسية مدبّرة إذن.. وهل أقيمت لكي يقولوا لي أنك في واد والعالم في واد آخر؟

ربما يقفون الآن في مكان قريب ويبعدون الناس، حتى تصل رسالتهم واضحة: لا تخسر نفسك يا أحمد، أنظر.. إن الناس الذين تقول إنك تكتب لهم لم يعودوا يلتفتون إليك.

* * *

مال عليه رئيس النادي المنظم لـلأمسية، كان وجهه أحمر، خجلاً، لو أن عُشْرَ أعضاء النادي حضروا، لتغير الوضع، ولكن الناس كانوا يتواردون، فتيات محجبات، طلبة، وبعض المعارف.

قال مدير النادي: إنني حزين لشيء واحد، هو أن الجهد الذي بذلته شخصياً مُسْتَغِلاً كل صداقاتي، للحصول على إذن بإقامة هذه الأمسية، كان أكبر كثيراً من حجم الحضور، أظن أن السبب هو الموقع. قلت لك نقيم الأمسية في الشيراتون، قلت.. لم تجر العادة أن نقرأ قصصنا في فنادق فخمة إلى هذا الحد.

نظر إليه أحمد الصافي ولم يقل شيئاً.

: أستاذ أحمد لا تنسى.. لقد كان الحصول على تصريح هذه الأمسية، أشبه ما يكون بالحصول على جثة شخص، كل الدلائل تشير إنه مات مقتولاً، ولا بد من تشريحه.

انخفض صوته أكثر.. والتصق بأحمد:

كان عليّ الذهاب إلى دائرةِ التعقيب ما دخل دائرة التعقيب هنا؟!
التي حولتني بعد الحصول على أختامها وتوقيعها إلى دائرة التحقيقات الجنائية، ثم إلى مديرية أمن العاصمة، بعد ذلك إلى المحافظة، التي أعادتني إلى الدائرة الأمنية لاستكمال بعض الاجراءات، وهذه حولتني بدورها إلى دائرةِ البصمة، وكان عليّ أن أسألك فوق هذا ـ وقد أزعجتك وأعتذر لك مرة أُخرى ـ كان علي أن أسألك عن اسم السيدة والدتك.. قلتُ لهم.. وما دخل والدته في الأمر.. قالوا: إجراءات أمنية فقط.

* * *

قال رئيس اللجنة الثقافية للنادي: لا بدّ أن نبدأ.. عندها ألقى أحمد الصافي نظرة سريعة باتجاه الحضور، مئات الكراسي الفارغة، وليس هناك سوى العشرات من الناس المبعثرين في الجو الضبابي الأصفر.

: يسعدنا أن نقدم لكم في أول أمسيات النادي الأدبية.. واحداً من أهم كُتّابنا الذين وقفوا مع الإنسان ودافعوا عن المباديء الكبرى للحياة و..

صعق أحمد الصافي تماماً حين دخل ضابط، وخلفه إثنان من أولئك الرجال الذين يرتدون الملابس الرمادية عادة، عرف أحدهم فوراً لقد رآه كثيراً.. هناك في غرفة مساعد الجنرال.

لم يوافقوا على إقامة الأمسية، إذن، بهذهِ البساطة. جلس الضابط وجلس الرجلان خلفه، كانوا الأقرب إلى الطاولة.. حاول أن يبتعد بنظره عنهم..

تناثر تصفيق خافت، فاكتشف أحمد الصافي أن عليه أن يبدأ الآن، فجأة قرر أن يقرأ «طفل الليلة الطويلة»، نسيَ الضابط ورجليّ التعقيب تماماً، ما أن بدأ، ولكنه عاد إليهما بصورة أقوى.

في القاعة كان هناك شاب بين الجمهور، في الصف الأمامي المواجه له تماماً، بدأ ينغمس في القصة إلى حد لا يصدق، يصفق بحرارة وهو يسمع:

«يسعدني أن أقدم لكم الشهيدة بكامل جراحها، ويصفق للطفل الذي يشق الحشود خارجاً من جرحها..

كان ذكياً.. لمّاحاً، حماسياً، يلتقط أجمل ما في القصة، من حالات، وعبارات أحياناً، ينظر إليه بعض الحضور باستهجان، ويجارونه أحياناً في تصفيقه، ولكنه لم يلتفت، لم يرتبك، حتى وهو يصفق وحده طويلاً حين لا يتجاوب معه أحد.

كان الجو مشحوناً جداً، في هذه الأمسية التي أُقيمت بمعجزة.. وكانت كمية الهواء المسموح باستنشاقها ضئيلة.

تذكّر أحمد الصافي أنه جرت مصادرة بطاقات الهوية في بعض الأمسيات لأُناس بمثل حماس هذا، واستدعوا للتحقيق، حيث لا يتفاعل مع قصص وقصائد كهذه إلا من هو خطير فعلاً..

تمنّى أن يلجم هذا الشاب حماسه، ولكن الأمنية جاءت متأخرة..

قال: هل أصبحت جباناً إلى هذا الحد. لماذا لا أمتلك جرأته.

بدأ يتعثر في القراءة.. اكتشف ذلك، عدل الوضع، إلا أنه حين القى نظرة جانبية إلى الركن الأمني في القاعة، عاد له ارتباكه.

تمنى أن تنتهي الأمسية، وأن يلقوا القبض عليه، هذا الشاب المتنمِّر الذي لا يرى شيئاً على سطح الأرض، الذي يصفق غير عابيء بكل هذه النجوم والرُّتب وعيون رجال التعقيب، نعم: تمنى أن يعتقلوه فوراً.. هذا الغبي لا يدرك إلى أيّ مدى وصلت الأمور هنا، حيث أصبحت إقامة أُمسية شعرية أو قصصية أو غنائية، من معجزات نهايات القرن.

لم يكن قد قرر قبل الأمسية قراءة «قامة الرمح».. إلا أنه بدأ بقراءتها، كان يريد أن يثبت أنه لم يزل أحمد الصافي، وكان يريد أن يثير حماس هذا المجنون الذي يملأ القاعة ببهجته كلما سمع جملةً حقيقية، أو انعطفت القصة إلى حدث مفاجيء حار، فليُثِرْ جنونه أكثر. ليفهمه.. إن الجنرال لم يروضه بسهولة.

فليفهم هذا، ليدرك تماماً، إنني لم أنحنِ بتلك السهولة.

* * *

انتهت الأمسية، اقترب بعض الحضور منه، صافحوه، لم ينظر إلى الجهة التي يجلس فيها المراقبون، بدأ ينتظر الفصل الثاني من الأمسية، اقتراب الضابط ورجليّ التعقيب من ذلك المجنون واحتجاز هويته، لاجباره على مراجعة المقر في صباح اليوم التالي، ولكن الذي حدث أن المجنون تقدم منه. مد يده.. ولـم يجد أحمد الصافي بُداً من التقاط اليد الممدودة الحائرة، كان المجنون أعمى.. عيناه غائرتان إلى أعماق جمجمته، فَرِحَ أحمد الصافي بعماه، فرح: لو كان مبصراً لما فعل الذي فعله، لو كان يرى الضابط ومن معه، لما جُنَّ إلى هذا الحد، ما ذنبي إن كنت رأيتهم، وحسبت ألف حساب؟ فرح أن المجنون أعمى، وكاد يطير، يصفق، ولكن شيئاً ما تحرك في داخله فجأة: أين أصبحت الآن يا أحمد.. هل تفرح بمصيبة كهذه، هل تفرح لأن الناس عُمْي إلى هذا الحد، وخزته البقع السود تحت ثيابه.. فوجد نفسه يبتعد بسرعة خارجاً من القاعة دون أن يودع أحداً.

* * *

قال: إنه فخ..

إنني متأكد من ذلك..

هذه الرسالة فخ.. فخ لعين..

حمداً لله أن أحداً في الجريدة لم يفتحها.. كما يحدث عادة.. حيث يقوم المحررون بفض الرسائل الموجهة إلى رئيس التحرير أو مدير التحرير، فهي غالباً ما تحوي أخباراً.. أو دعوات لحضور حفل خيري ما، يكون من واجبهم كتابة أخبار حولها.

قرأ الرسالة.. هل من الممكن تخطّي كل حواجز الجنرال.. قبل أن تصل..

قال: لا شيء يتخطى كل الحواجز. إذن الرسالة فخ.. اختبار ولاء..، وبين أن يسلمها أو يحتفظ بها.. اختار الاحتمال الثاني.

نعم.. إذا عرف الجنرال أن واحدةً من قصصي ساهمت في تحريض شخص على القيام بعمل لا يحبه الجنرال.. فمعنى ذلك أن

الجنرال لن يكتفي بحالة العقم هذه التي تعصف بي، بل سيقوم بجمع كتبي من السوق والبيوت ليحرقني بها.. أخبيء الرسالة.. وإذا سُئلتُ عنها.. أقول أنني لم أتسلمها..

ولكن أليس هناك احتمال بأن الشخص الذي أحضرها.. كان يقف في إحدى الزوايا الخفية ليتأكد من أنني استلمتها؟.

سأقول: إن هناك رسائل لا أقوم بفضها أحياناً بسبب ازدحام العمل.

لم يمزقها، كان يخشى أن يقرأ أحد قطعة منها.. حملها معه للبيت.. فأحس أن وضعها في جيبه كل هذه المسافة.. هو أكبر حماقة يقوم بها منذ زمن بعيد.

* * *

كان التعذيب قد هدأ.. لم يستطيعوا انتزاع شيء منه.. سوى مزق من لحمه، عم الهدوء.. حتى اعتقد سعد أنه سيُنسى هنا.. إلى يوم القيامة.. عندها قرر أن يبعث برسالة إلى أحمد الصافي، كان ذلك بعد أن بدأت علاقة طيبة تربطه بأحد الحراس، أحضر له الصحيفة ثلاث مرات. كان يقرأ مقالات أحمد الصافي.. يلتهمها.. لم تكن بذلك الاندفاع القديم.. نعم.. ولكن الزنزانة الضيقة جعلت من هذه المقالات عالماً واسعاً لا يُحد.

طلب من الحارس أن يحضر له قلماً وورقة. استجاب ببساطة..

قرر أن يكتب إلى أحمد الصافي.. لم يفكر بالكتابة إلا إليه.

* * *

أخي وصديقي الأستاذ أحمد الصافي

تحية صادقة.

أنا «طفل الليلة الطويلة». سعد. وعدتك... ووفيت بوعدي.. وكما حدث في قصتك.. لم يذهب دم أمي سدى.. ففي اللحظة التي زعق فيها ذلك الجنرال.. بصوته البشع: أقدم لكم الشهيدة.. بكامل جراحها.. كان على طفلك أن يشق العالم.. ويخرج من جرحها مولوداً كاملاً.. يجتاز

البلادة القاتلة لأعين الجنرالات وينزل الطاولة دون أن يلتفت إليهم.. ويمضي خارجاً.. إلى حيث يعرف.. إلى حيث كانت أمه.. إلى المكان الذي صبت فيه الطائرات قذائفها والمدافع حممها. وأن يبدأ من هناك. لعلك استوحيت قصتك من تلك الأم الحامل، التي قُتِلَتْ في إحدى الغارات الإسرائيلية قبل سنة تقريباً.. ولكن جيرانها استطاعوا نقلها إلى المستشفى بسرعة، وبسرعة.. أخرجوا ذلك الطفل من جسدها حياً.

أنا طفل تلك الغارة.. طفل ذلك الجرح.. طفل تلك الليلة الطويلة.. لقد كان لقصتك حضور دائم حين قررت اجتياز هذا الليل المغزول بالموت.. ليل العدو. وليل المنفى..

قد لا تُصدّق.. ولكنني سأقول لك.. إن قصتك كانت الحاجز الذي تتحطم عليه السياط وهم يحاولون تدمير روحي.. وتدمير الوطن في داخلي.. وكلما كان الضعف ينخر لحمي، كنت أتشبث بهذه القصة.. قصتك.. لأنني لم أكن أستطيع أن أخرج لألقاك بوجه مُسْوَد.

مع كامل محبتي

«طفل الليلة الطويلة»

سعد

* * *

قرأ السطور الأخيرة مرةً.. مرتين..

وعندما نبحَ الكلب من الشرفة المجاورة..

وجد أحمد الصافي نفسه ينبح معه..

دخلت فتنة وهي تضحك..

قالت: أصبح لدينا الآن جروان في الحارة.. ولم تقل كلبين وضحك هو.. وتعجب كيف ضحك.

* * *

بدأ أحمد الصافي بالبحث عن معنى للوحة الغزال الذي تهاجمه الكلاب الذئبية.. بحث عن معنى للوحة دونكيشوت. هل تم اختيارهما مصادفة.. أم تم التخطيط لكل شيء.

في البداية احتار: لقد خيروه أن ينتخب المكان الذي يريد لتعليق صورة الجنرال. وكما يقول المثل: إذا أردت أن تحيّره فخيِّره.. وهذه ليست حيرة عادية: اختبار ولاء.

سيعود المدير الإداري بعد قليل.. يطرق الباب.. وبعينين خبيثتين سيبحث عن صورة الجنرال.. عن موقعه .. اختيار الموقع هو الاختبار.

وعينا المدير الإداري نافذتان مشرعتان دائماً للجنرال، كان أحد مساعديه لسنوات طويلة.. وبعد انتهاء خدمته اختاروا له هذه الوظيفة.

قال: أنزلها منزلةً بين اللوحتين.. بين دون كيشوت والغزال، بذلك تكون مواجهة لي دائماً.

ولكنه خشيَ أن يُفسَّر وضعها بهذا المكان تفسيراً خاطئاً: كيف تضع الجنرال بين دونكيشوت والكلاب؟

.. اختفى الغزال.. نسيه.. سأل: كيف نسيتُ الغزال.. لماذا لم أرَ غيرَ الكلاب. كان الغزال واقفاً متحاملاً على جراحه، غارساً قائمتيه الخلفيتين في التراب.. وناطحاً الغيم بقرنيه المتشعبين، معلقاً بين أنياب مسنونة في تأرجحه ثبات ما. سريّ.. سحريّ.. غامض وواضح.. رغم انغراس أنياب أحد الكلاب في ظهره وإطباق فم كلب آخر على إحدى قائمتيه الأماميتين.

* * *

هكذا أحضروا له ذلك الفتى.. بهذا الوضع.. الأظافر تغوص في لحمه.. ولكن عينيه كانتا تبتسمان.. كانت عينا الفتى تبتسمان.. قيل له في الزنزانة، يا سعد: سنحطمك.

وقيل لأحمد الصافي: الجنرال يريدك فوراً.

كان الجنرال قد تذكر فجأة سعداً.. حين قرأ ذلك الصباح مقالاً لأحمد الصافي.

طلب مساعده الخاص.

سأله: ما أخبار ذلك الولد..

- أيّ ولد..

- ذلك الذي أُلقي القبض عليه بعد تنفيذه العملية..

- موجود سيدي..

- أحضره لي.. وأحضر أحمد الصافي أيضاً.. أريدهما الآن.

: سنحطمك.. رددها أحد الجنود ثانية..

ولكنهم بدل أن يقودوه إلى غرفة التحقيق الداكنة الدامية.. صعدوا به الدرجات. وظلوا يصعدون.. وأنعطفوا يميناً.. إلى الممر الطويل.. قطعوا مسيرة يوم صحراوي.. هكذا أحس سعد.. توقفوا.. طرق أحدهم الباب.. ودخل

قال المساعد الخاص: ادخلوه..

حاول أحمد الصافي أن يتذكر هذا الوجه.. لم يستطع.. هل هذا سبب استدعائه السريع..

ها هو أمام فتى لا يتجاوز العشرين.. يعرفه ولا يعرفه.. في يده كوب شاي.. بدأ يرتجف كلما أقتربت ملامح الفتى من ذاكرته أكثر.

وارتجف الفتى.. لأول مرة يخاف إلى هذا الحد.. عرف أحمد

قال الجنرال: أهلاً سعد.. أهلاً بالبطل!

اعتكر لونُ الصافي.. تذكر الرسالة الأولى تذكر الثانية.. قال الرسالة الثانية فخ.. ولكنّه استبعد ذلك.. لأن وقتاً طويلاً مضى عليها.

قال الجنرال: كنتُ أتحدث مع الأستاذ أحمد.. وأسأله.. هل تؤمن بكل ما في هذا البلد.. فأكد لي أنه يؤمن فعلاً.. بالمناسبة أُعرفك على الأستاذ أحمد الصافي.. أحد أهم الكتاب.

- ماذا يريد الشيطان. صرخ أحمد في داخله. اشتعل كوب الشاي في يده بعد أن كان نسيه تماماً..

استجمع سعد روحه وجسده.. غرس قدميه في أرضية الغرفة.. ورأسه في سقفها.. تحامل على نفسه.. فبدا أكثر ثباتاً.

قال: فخ أعد باتقان.. رأيته ومن العار أن أقع فيه.. مقابلة مدبرة.. مصنوعة.. مفبركة.

قال الجنرال: خذوه.

فعادوا بسعد..

* * *

شكراً أستاذ أحمد على حضورك.. سنبقى على اتصال.. وقف الجنرال.. مدّ أحمد يده ليصافحه.. وقف، يده الآن في يد الجنرال الذي عاد يتحدث: قصة الأعمى طريفة أليس كذلك.

- لم يستطع الاجابة.

هل تم زج الأعمى في الأمسية بتدبير من الجنرال.. استبعد ذلك.. لم يستبعده.. وظل صامتاً.

* * *

قال: ماذا يعني أن أخسر قارئاً.. إن لدي عشرات منه.

- ولكنه ليس كأي منهم..

- وليكن..

- إنه جزء من قصتك.. بل إنه الكائن الوحيد ربما الذي أعطى قصصك هذا المدى.

قال: وليكن.. هو قاريء واحد.. واحد فقط. وربما يكون هناك عشرات غيره أعطوا القصص مداها..

- وهل ستبيعهم بكلمتين.. مثلما بعته؟

قال: لم أبع أحداً.. لقد أفرحت الآف القراء وما زلت.

- أنت الآن بدأت تعيش على فوائد قصصك.. لا قصصك نفسها.. تشبه أولئك الرجال الذين مرّوا في شوارعنا ولم يعودوا ثانية.. مع أنهم يسكنون المدينة ويمرون بالشوارع نفسها كل يوم.

قال: ما زلتُ قادراً على الكتابة.

ـ رغم أنك لم تكتبْ منذ زمن.

قال: أستطيع أيضاً إعادة طباعة كتبي..

ـ لن تجرؤ على ذلك.

قال: لماذا؟

ـ لأنهم لن يقبلوا حنينك للماضي.. ثم أنك لم تعد تملك ذلك الوهج القديم.. نحن نحسّ بحرارةِ الجمر حين نكون قريبين منه.. وأنت ابتعدت.. ولا تنسَ أن هناك جيلاً جديداً من الكُتّاب.

قال: مجرد أولاد..

ـ ولكنهم يعطون أكثر من حجم أعمارهم..

قال: سيبقون أولاداً..

ـ وأنت؟

قال: أنا سأبقى الأساس.

ـ غداً يذوب الثلج!

* * *

بحث عن جُحرٍ يندس فيه. لم يجد. كل ما حوله يعيد تلاوة التفاصيل، وجحافل من نمل أسود بدأت تدب على صخرةِ روحه العارية، ما الذي يعنيه صموده، ما الذي يعنيه عدد من العصي على جسد؟ لقد التهم جسدي آلاف العصي عندما كنت صغيراً، ولكنني كبرت، وواصلت حياتي، وها أنا أحمد الصافي.. اسم بحجم صاحبه على الأقل ما الذي يعنيه عدد من العصي؟ لقد أكلت من ثمارها القاسية بذنبٍ وبغير ذنب، طيلة طفولة كاملة، وكبرت.

تذكر أمه.. لأول مرة.. من زمن لم يتذكرها، ظلَّ يدفعها إلى تلك النقطة المظلمة التي لا تعود فيها مرئية.

ظلت تقول له: أنظر إلى عمر ـ وكان عمر صديقه ـ : إنه لا يفارق كتابه.. ليل نهار يدرس، وأنت.. تتقافز من سطح إلى آخر مثل قرد ـ وتضربه حين يعظم غيظُها ـ في نهاية السنة، ستفضحنا بشهادتك المدرسية المليئة بالدوائر الحمراء، إنك لا تستحق الطعام الذي تأكله.

ويجيء آخر العام مندفعاً، يخترق صدر الطفولة الهاربة، فإذا بعمر يرسب، وهو ينجح، وتبدأ السنة التي تليها، وتتكرر الأسطوانة.

نعم لقد فكرتُ جيداً بقتله هذا «العُمر» الغبيّ، لماذا لا أقتله، كل هذا يحدث لي بسببه، سأستدرجه إلى حافة إحدى الكسارات وألقيه من هناك، ولتتحطم جمجمته الفارغة.

قلت لها: انه يقرأ كحمار، ولا يفهم شيئاً.

قالت: إنه لا يفارق كتابه.

ثم يرسب عمر، ويقومون بترفيعه إلى الصف التالي مرة كل عامين ـ تلقائياً ـ، وتظل أمي تصرخ ستسود وجهي في نهاية السنة، حين تأتيني راسباً.

وحتى حين لم يعد بإمكان المدرسين ترفيع عمر إلى صف آخر، حتى عندما طردوه واشتغل، وكنت قد تجاوزت الثانوية العامة بنجاح، قالت أمي: أنظر إلى عمر.. لقد اشتغل وتزوج وامرأته حامل منذ شهرين.. وأنت أنظر إلى نفسك.. مشغول دائماً بكتابة هذه الخراريف.. وقراءتها.

ولذلك كان علي أن أقتل عمر، ذلك الذي كان وحده يملأ عيني أمي، سأقتله لقد نالني من العذاب بسببه ما لا يحتمل.

ولكنني حين افتعلت الشجار معه بعد سنوات، لم أستطع توجيه أكثر من لكمة واحدة إلى أسنانه الصفراء البارزة دوماً، فلتسحق ابتسامته الغبية إلى الأبد.. نعم إلى الأبد.

* * *

أي أنواع العذاب إذن لا يمكن أن أحتمله.. وأنا أعرفها كلها؟

* * *

تذكر كتاب كان اشتراه منذ مدة «التعذيب عبر العصور» نعم.. «التعذيب عبر العصور». بحث عنه.. وجده.. بدأ بقراءته.

ما الذي أحاول أن أثبته لنفسي؟ أنا لم أسقط السقطة القاتلة. لم أقدم أي شيء.. سوى كلمتين، كلمتين لعينتين.. نعم، ولكن هذا الضغط

الذي مارسوه على الروح أقسى الآف المرات من أي ضغط يمكن أن يمارس على الجسد.

قرأ.. وواصل القراءة، أشكالٌ مرعبة من التعذيب، ولكنّه كان يتساءل هل احتملها: ويجيء جوابه: نعم.. بثقة.

- الإهانات؟
- أحتملها.
- خلع المفاصل وتكسير الأطراف؟
- أحتملها.
- الدحرجة من على جبل بعد ربط الجسد بدولاب يصنع خصيصاً؟
- احتملها.
- الخازوق.. استخدام الوحوش.. الشـي حياً، انتزاع اللحم؟
- نعم سأحتملها.

كان صوته يرتجف، حاول ألّا يسقط على الورق الذي يحرثه بعينيه الداميتين، توقف عند فقرة تتحدث عن رجل عملاق، تذكر أن سعداً طفل: لا يهم.. الإنسان إنسان، لقد استطاع هذا الرجل أن يمتص كل أشكال التعذيب كما يمتص النشاف الحبر.

تمنّى أن يمتص جسده هذا الحبر.. تمنى أن يكون ورقة نشاف يغرق فيها الحبر بلا عودة.

لقد جاء محققان وقالا للعملاق السجين، استعد لمغادرة المخفر.

أخذاه إلى طبيب أسنان مجاور تربطهما به صداقة ويعرف الجميع من الكابتن إلى أصغر مجند في السلك، وفي عيادة الطبيب قُيِّدَ إلى الكرسي في الوقت الذي كان يُعقد فيه اجتماع صغير، كان رجلا التحري واثقين أنه ما من شيء سيحدث يمكن له أن يجرم أحداً، وما أن أعطي إشارة البدء حتى بدأ طبيب الأسنان عملية ثقب بطيئة في منطقة العصب، وبعد أن حشا السنّ تساءل السجين بقلق عن عدد الأسنان التي سيتم ثقبها.

ـ كلّها.. قيل له. ولدى سماعه ذلك اعترف».

قرر أحمد الصافي أن يذهب إلى طبيب أسنان.. وأن يطلب منه اقتلاع أحد أسنانه السليمة.. بعد أن يقنع الطبيب أنه يعاني ألماً كبيراً بسببه، فكّر في ذلك طويلاً.. ثم حمل إحدى مجموعاته القصصية «قامة الرمح» وذهب إلى الطبيب. يعرفه، كان قد حضر بعض أُمسياته، وطلب منه أكثر من مرة أن يحصل على واحدٍ من كتبه بحجة أنه لم يعثر عليها في السوق.

صعدَ الدرجات إلى الطابق الرابع في البناية. وصعد الكرسيّ.. سأله الطبيب فشرح له المشكلة التي يعاني منها.. ولكنه بدلَ أن يطلب منه أن يخلع أحد أسنانه، أشار إليه أن يخلع إحدى طواحينه، بعد أن تذكّر أن خلع سن سيشوه منظره.

وقبل أن يبدأ الطبيب النظر في داخل فمه، ناولَهُ الكتاب.

: قال أوصيتني أن أُحضر لك من كتبي، أعتذر لأنه لا يوجد لدي غير هذه المجموعة وبما أنني وفيتُ بوعدي فعليك ألا تؤلمني!

شكره الطبيب بحرارة خاصة بعد أن طالع الاهداء الذي كتبه المؤلف له.

قال: الآن للعمل.

حدق في الكهف اللحمي الصغير.. سأل: أين الطاحونة التي تؤلمك، أشار إلى واحدة كيفما اتفق.

قال الطبيب: إنها سليمة تماماً.

ـ ولكنها تؤلمني.

ـ يهيأ لي أن ما يؤلمك هو الطاحونة الأخيرة، ضرس العقل فالسوس التهمها.

بدأ الطبيب يعمل بها.. كان على وشك الانهيار. تصاعد الشرر

منها.. لا بد أن الشرر تصاعد منها لأن فمه بدأ يحترق.. حاول مرة وثانية أن يتماسك.. في النهاية صرخ.

قال له الطبيب: يلزمها الكثير من العمل.

قال: نؤجله إلى يوم غد..

لا يجب أن ننهيها الآن. ثم إن هناك غيرها.

قال: أعطيك الكتاب لكي لا تؤلمني.. وها أنت تعذبني، حاول أن يضحك، أن يبدو الأمر نكتة.. ولم يدر كيف فهمها الطبيب. إلا أن أحمد الصافي اكتشف المعادلة وهذا ما فجّر ألمه أكثر: لقد منحت الجنرال كل قصصي، ولكن هل سيتوقف عن قلع أسناني..؟..

أحس أن كل شيء يذهب سدى.

ـ صرخ ثانية ها رأسه يتفجر ببطء.. وها هو يرى حطام جمجمته في تصوير بطيء على شاشة كونية.. أعطني إبرة بنج.

قال الطبيب: يكفي اليوم. غداً نواصل.

وعندما هبط الدرجات، كان يعرف أنـه لن يعود أبداً. لقد هُزم.. وبدأ يبحث عن جحر آخر يختفي فيه من جديد.

* * *

انتظر الليل أن يهبط بكامل أجنحته.. بكامل غموضه الذي تعطيه الريح خطىً وطرقاً سرية.. انتظر سقوط فتنة في بئر نومها. هذا النوم الأثقل في العالم. كان يحسدها، انها قادرة على أن تنام بهذا العمق.. بهذه البلادة.. بهذا البرود.. رغم كل شيء.. تستطيع النوم.. كأنها تلجأ لحل مشكلاتها بالدخول إلى نصف الموت.

تسلل على رؤوس أصابعه مرتبكاً.. تناول بيجامته خرج إلى الممر ـ الإحتياط واجب ـ خلعَ بنطاله.. دائماً يبدأ بالبنطال.. البقع السود على الساقين أقل اتساعاً، خوفه تمثل دائماً في أن تراه فتنة، خلعَ قميصه الأبيض.. هو الآن مغرم بالبياض ـ اندس في البيجاما.. أتعبته المحاولات التي بذلها في هذا الظلام.. وهو يعمل على زرِّ القميص.. ولكن

ذلك كان يبعث فيه الاطمئنان دائماً. كان يستغل غيبتها بعد خروجها إلى العمل - وكان يحدث ذلك دائماً كلما اشترى قميصاً جديداً أو بيجامة - ويبدأ بتضييق العُرى، حتى لا يكون هناك مجال لانفتاح البيجاما ليلاً.. أو القميص نهاراً.. وكان لا يستطيع أن يلبس ربطة عنق.. ولكنه اضطر لذلك.. فبدا أكثر أناقة من الخارج، بعد أن كان يبدو كشخص مشنوق، ودائماً كان يحرص أن تكون الجوارب طويلة.. تصل الركبة.

لم يكن يريد أن تراه فتنة على هذا الحال.. والبقع كانت تتسع وتضيق بلا ضابط مفهوم في البداية، حتى اكتشف سرّها.

يهرب من فتنة.. من جسدها الذي كان يحبه.. من عفويتها.. واشتعالها.. ونومها الثقيل، مرةً قال لها إنك امرأة المتناقضات. كان يتمنى امرأة أقل حرارة، خائفاً أن يذيب عرقها الجاري هذا السواد الذي يحتله، فتجد نفسها صباحاً غارقة في الحبر، كان لا يجرؤ على النوم عارياً معها.. يندس ببيجامته.. ينزل البنطال إلى ركبتيه.. ويفعلها لأنه يريد أن ينتهي..

تجرأ أخيراً أن يدخل عارياً جسدَها..

انتابه ذلك اليوم حس بضرورة الانتحار.. ولم يكن يستطيع تنفيذ ذلك، لم يجد إلّا أن يُدمِّر كل شيء بأن يعود كما ولدته أُمه.. لا.. لم تلده أُمه بهذه الصورة، كما ولده الجنرال، لا.. كما ولد نفسه، يغوص في لحمها.. ولتغسله.. فليختبر طهارتها ونقاءها بحلكة سواده!، ولكنه للمرة الألف.. لم يستطع اشعال الضوء.

قالت: أُريد أن أراكْ.

تحسستْ جسده بشبق مجنون، أمسك يدها قرب مفتاح الكهرباء،
قال: لا تشعلي الضوء.

كيف رأى يدها في هذه العتمة الصلبة..

: كأني واحد من كائنات الليل.. كأنني خفاش..

حاول أن يقول: وطواط. ولكنه وجدَ أن كلمة خفاش تدلّ أكثر.. إنها تخفشُ!!.. أو تخمش.. أو تنهش، إيقاع الكلمة أكثر حضوراً فيه.. ابتعد كثيراً.. وحين عاد وجد فتنة في أوجها..وكان يواصل حركته بآليةٍ.

قالت: يكفي.

لم يكن يهمه أن يواصل.. حين وجدَ نفسه غارقاً في بحيرات لزجة.. أفرحه أن عرقها كان غزيراً.. وانقلب على ظهره.

* * *

لم يعد قادراً على ترتيب الحوادث في ذهنه متسلسلة. أشياء كثيرة حدثت، يُفكر فيها، فيحسّ أنها ستحدثُ مستقبلاً، ويفرحه أنه متيقن إلى هذا الحد من نبوءآته، وكأن حوادث لم تنته بعد، يعيشها، فإذا به يحس أنها جزء بعيد من طفولته، ولأنه لا يعرف كيف ستنتهي، فهو لا يستطيع أن يتذكر نهاياتها.!

وحده الكلب في الشرفة المجاورة يدله على مكانه، تقلب في السرير، نبحَ الكلب، هذا المخلوق الأبيض المرقّطُ بالأسود يحس بكل حركاته.

قال: هل حركتي توقظ الكلب؟

حاول أن يدخل التجربة.. تحرك مرةً ثانية، نبحَ الكلب، بدأ يتحرك بسرعة أكثر، ينتفض، وبدأ الكلب نباحاً متواصلاً.

وفتنة.. كانت بجانبه.. ولم تكن بجانبه..

تساءل: كيف يستطيع الإنسان النوم؟!.

* * *

بحث عن مكان يليقُ أكثر بصورةِ الجنرال، وظلّ المدير الإداري يذرع الوقتَ بعينيه المتلصصتين، قلّب الدنيا في روحه.. عاد لَهُ السؤال الذي لا يفارقه: هل وضع الجنرال الكلب في الشرفة مصادفةً.. إكتشف

أنه في تلك اللحظة.. كان ينظر إلى الكلاب في اللوحة.. والغزال.

طردَ الأسئلة.. حين رحل بعينيه إلى دونكيشوت وسانشوبانزا.

هل يمكن أن أكون دونكيشوت؟

- لا..

- إذن سانشو.

- من إذن دونكيشوت؟ الجنرال؟

- لا.

- رئيس التحرير؟

- ربما..

- وأنا؟.. سانشو؟

الجنرال لا يقصد ذلك حرفياً إلا إذا كان غبياً، فرغم كل شيء كانت أهداف دونكيشوت وسانشو نبيلةً، ولكنهما لم يمتلكا تلك القوة التي يحققان بها أحلامهما: هل أُشبههما في هذه النقطة؟

لا... لا.. كنت أُشبههما في الماضي ربما.

قرر الذهاب إلى طبيب نفسي.

قال له: لديك حسٌ عميقٌ بالذنب.

فقرر ألاّ يعود إليه ثانية.

قال: إنني أعرف علّتي أكثر منه.

وعاد ليغرق في اللوحتين. في الوقت الذي بدأت صورة الجنرال تذرع الغرفة أمامه باحثةً عن مكان مناسب لها.

* * *

تغير الجنرال.. استبدل جلده.

كان قد طلبه في ذلك اليوم. ذهب.. فوجيء للمرة الأولى بعدد هائل من اللوحات التي تغطي جدران مكتبه الضخم.. أعمال فنية عالية القيمة. أصليّة كان يومها يشعر براحة خلال الزيارة.. فكّر: ربما سبب ذلك أنني أجيءُ للمرة الأولى بسيارة خاصة.

قال الجنرال: مبروك.

- الله يبارك فيك.

- هل اعجبتك السيارة.. أين أوقفتها؟

لم يعرف إن كان عليه أن يجيب على السؤال الأول.. أم الثاني أم كليهما.

- في موقف سيارات قريب من هنا.

- لا.. هذا غير لائق.. خاصة في هذا الجحيم.. إن صيف هذه السنة جمر حقيقي.. في المرات القادمة ستدخل إلى الموقف الخاص بالمقر.

- حاضر.

- عن إذنك.. دقائق وأعود.

خرج الجنرال.. عاد الجنرال.. لم يحس بدخوله..: أين وصلتَ.

قال: اللوحات.. أعمال جميلة.. خاصة لوحة الخيول.. لم أر في حياتي خيولاً منطلقةً إلى هذا الحد.

نفخ الجنرال بأسى.

قال: نعم.. ولكن مَنْ يُقدِّرُ ذلك؟

نقل عينيه عن لوحة الخيول.. استند إلى الكرسي غاصَ في داخله.. إلى تلك الدرجة التي يعتقد فيها الإنسان أن الكرسي نفسه هو الذي يتكلم.

: أنت تعلم أنني أمضيت فترة من حياتي في سويسرا، هذا ليس سراً.. وهناك فوجئت للحقيقة بأعمال أحد الفنانين الشباب، فاشتريت ما يقرب من ثلاثين عملاً فنياً له.. باختصار.. اشتريتُ المعرض بكامله، كان السعر الإجمالي للوحات تافهاً بالمقارنة مع أهميتها، قد تستغرب الآن ما سأقوله لك، منذ شهور زرت جنيف، وعندما علم الفنان بوجودي، اتصل بي وزارني، وللحقيقة إنني أحببت أن أراه فعلاً. ذكرني باللوحات التي اشتريتها منه، فقلت: إنها في الحفظ والصون!.

وبخجل شديد عرض علي أن يشتريها ثانية.. بعشرة أضعاف ثمنها.. ضحكت.. واكتشف أنه كان غبياً في طلبه.. ما الذي تعنيه لي مضاعفة المبلغ عشر مرات؟ أقصد.. في مقابل لوحات فنية.

غاص الجنرال أكثر في الكرسي.. وتحدث بأسى أكبر: ولكنني أصارحك.. إنني أعدت كثيراً من هذه اللوحات إلى موطنها.. جنيف.

قد تسأل: لماذا؟

ـ لماذا؟

لقد نظرت في أحد الأيام إلى هذه اللوحات بعد خروج عدد كبير من المدعوين من بيتي.. فوجدتها حزينة.. قد تستغرب هذا.. نعم كانت حزينة.. لقد راقبت المدعوين طوال السهرة.. فلم يلفت انتباههم أيٌ من هذه هذه اللوحات، باستثناء لوحة فاشلة في صدر البيت، منقولة عن صورة فوتغرافية للمرحومة الوالدة. أما بقية اللوحات فكانت حزينة.. في اليوم التالي ـ وأنا أشعر بالذنب الآن ـ فعلاً ـ لأنني اكتشفت هذه الحقيقة متأخراً ـ في اليوم التالي قررت إعادة هذه اللوحات إلى جنيف.. إلى بيتي الذي هناك. قد لا تصدق ما سأقوله لك الآن:

لقد تأملت اللوحات في زيارتي الأخيرة إلى سويسرا بعد إعادتها.. ولك أن تستغرب ما سأقوله:

لقد شعرتُ أن اللوحات فَرِحةٌ بحريتها.. فَرِحةٌ إلى حد لا يصدق، حتى إن عيني أغرورقتا بالدموع، كما تقول العرب.

صمتَ قليلاً.. ثم هتفَ وكأنه استعاد نفسه.

ـ ماذا كنت سأقول: آه.. إنني أقرأ مقالاتك.. خاصة «كلمة الصحيفة» وأظن أنها جيدة.. ولكنني أحب أن أشير إليك هنا.. أنك تبالغ أحياناً في المديح. أقصد مدحنا. وهذا قد يكون له أحياناً مردودٌ عكسي.. أفهم.. نعم.. أفهم جيداً أنك جديد في هذا المجال، وأنك ستتقن اللعبة قريباً.. لا سيما أنك تمتلك من المؤهلات ما لا يمتلكه غيرك في الصحيفة، ولذلك.. ستقدم الأفضل مستقبلاً.

... لقد اضطر رئيس التحرير مؤخراً إلى شطب كثير من الولاءات الزائدة التي أغرقت بها المقالات.. تذكّر.. إنني أريدك معتدلاً.. وأن تبدو علمياً.. نحن بحاجة إلى كمان.. لسنا بحاجة إلى بوق.

صمت الجنرال طويلاً. حدق في وجه أحمد الصافي..

قال: ولكن أنت تعرف أننا نحبك ونحترمك يا أحمد.

* * *

لقد تغيرَ الجنرال فعلاً.. لم يعد هنالك أثرٌ للتشتت الذي كان يبتلع كلماته.. مثل تلك الشهيرة التي ألقاها في افتتاح مصنع الشوكلاته والعلكة..

* * *

صرخت فتنة في وجهه ما أن عبر بوابة البيت: لقد أبلغوا الجيران.. كلّ الجيران.. إنهم سيقومون بترحيلهم.. وأبلغونا بذلك.

سقط أحمد الصافي على المقعد.. رأى نفسه عارياً أمام فتنة بكامل بقعه السود التي تحتل جسده.. عاوده الإحساس بأن العالم ضيق. وأنه ليس أكثر من لقيط.

في كل مرة كان يجد نفسه عرضة لعاصفة اليأس، كان يتذكر اسمه «أحمد الصافي» نعم لا أمتلك غير الاسم، ويستغرب أن لديه اسماً مكوناً من مقطعين، «أحمد».. «الصافي»، لا يستطيع الآن أن يتذكر ما بينهما. وكلما أوغلت العاصفة فيه اكتشف أنه «أحمد». أحمد فقط.. تلك كانت أقصى حالات غربته، ضياعه، إحساسه بأنه مجتث عنوةً من رحم لا يعرفه، وقبل أن تكتمل الحياة فيه، ولكنه يعود ويطمئن نفسه.. يتذكر «الصافي» ولكنه يكتشف أن الصافي صفة أكثر مما هي اسم. فيحزن.

الآن يكتشف أنه فقط أحمد، وأن «الصافي» لم يعد «صافياً».. إنه عكر.. أنا أحمد العكر.

ولكنه فجأة فَرِحَ أن لديه اسماً من مقطعين رغم كلّ شيء: أحمد العكر.

قالت: عليك أن تحلّها مع صاحبك.

- مَنْ صاحبي؟

- الجنرال.

- ومن قال لكِ أنه صاحبي؟

* * *

هذه المدينة بكامل سيولها.. وتلالها ستبقى قريبة مهما اتسعت. وعنزة ولو طارت.

* * *

دخل مكتبه.. تأمل صورة الجنرال.. كان قد اكتشف أن المكان الأنسب لها.. هو المكان التقليدي.. أن تُعلق فوق الرأس.. حيث يجلس الشخص.

واجه الجنرال.. أحس انه ضيف على العالم.. لم يجرؤ أن يجلس على كرسيّه خلفَ الطاولة.. هو ضيف فقط. وكل شيء عرضةٌ لهبوب رياح الجنرال.

: ما الذي يريده الجنرال.. هل أتحدث معه وأطلب منه أن يرحم أعصابي.. وأطفالي!.. تذكّر أن لديه «فارساً» فقط.. يحبّه ويكرهه.. يحبه لأنه بريء ويكرهه لأنه بريء، يكرهه إلى الدرجة التي قرر فيها الّا ينجب غيرَهُ، الا تساهم براءة جديدة في شده إلى القاع..

: ولكن ما ذنب الطفل.. ما الذي يريده الجنرال.. سأكتب باسمي.. سأكتب. واكتشفَ للمرة الأولى أنه لم يكتب باسمه طوال هذه المدة إلا لأنه متيقن أنه لا يملك غير اسمه: سأعطيه اسمي.

رنَّ جرس الهاتف وواصل رنينه.. قال مرة: أخشى أن يعذبوني برنين متواصل لجهاز الهاتف.. لأنني سأعترف.

- تعترف بماذا.. سأل نفسه مستغرباً.

قال: سأقرأ لهم قصصي كلّها.. وضحك.. كان لما يزل قادراً على

الضحك، تعب الهاتف.. توقف الرنين.. فعمّ الصمت. نهضَ احتل مكانه خلف الطاولة.

: لن أكونَ ضيّفاً بعد كلّ هذا الذي قدمته.. لا لن أكون. لمح الكلاب التي تنهش الغزال: لن يكون ذلك.. قالها بحنق.

لم يعرف عما سيكتب.. طلبَ المراسل.. أحضر له قائمة بأهم الأخبار.. توقف عند واحد منها. الجنرال يفتتح اليوم أول مدينة تعليمية تربوية في المنطقة.

لم يتردد.. أحس أن المقال حاضر فيه منذ زمن.. نافورة المقالات والكلمات المتكررة.. كتبَ عن ضرورة العلم.. وأن هذه الفكرة: فكرة المدينة التعليمية التربوية، فكرة فذة، على غرار المدن الصناعية التي أُقيمت.. وأشار إلى أننا يجب أن نبدأ بتصنيع أبنائنا.. وبنائهم.. بهذا نصل إلى القوة التي تؤهلنا لدق بوابات العالم بجرأة. كان يعرف أن المدينة التربوية ستخصص لدراسة سيرة الجنرال.. وحكمتِه وأقواله وخطبه..

وأكد في النهاية أن ذلك لم يكن ليتم لولا الحكمة الملهَمَة للجنرال.. الذي بغيره ما كان لهذا البلد أن يكون.

ووقّع:

«أحمد الصافي»

* * *

لم يتبق لي شيء الآن.

* * *

ضغطَ مفتاح الجرس.. هبَّ المراسل.. تناول المقال من اليد الممتدة اليه.. خرجَ إلى الليل الذي أصبح قطعةً منه.. ناوله موظف الاستعلامات مغلفاً صغيراً دسَّه في جيبه.. اندفع إلى الشارع المضاء

بالزئبق الأصفر.. قرر أن يترك السيارة واقفة وأن يقطع المسافة سيراً على الأقدام إلى البيت.. ركضاً.. أو كيفما اتفق.

سار مسافة طويلة.. تذكر أن مقاله في زاويته اليومية المعتادة «الحقيقة الحلوة. والحقيقة المرّة» يتحدث عن تلك الفئة من الأطفال التي تجوب الشوارع، تبيعُ الصحف والعلكة وأكياس القمامة وأوراق اليانصيب عند الاشارات الضوئية، وتقوم بأعمال شاقة في الكراجات ومعامل الطوب، والمناجر، والمحادد، وتساءل عن النظام التربوي أين هو؟.. وكيف نسمح لأنفسنا أن نتركهم فريسةً لأنياب الشوارع والمستغلين، في وقت يجب أن يكونوا فيه على مقاعد الدراسة، وطالب بمحاكمة آبائهم ومحاكمة النظام التربوي الذي يغض الطرف عن مشكلاتهم تذكّر ذلك. قال: سيكون الغد مهزلةً.. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحاً.. لا بدّ أنه قطع أكثر من خمسة عشر كيلومتراً باتجاه بيته.

انهار تماماً.. لن يستطيع العودة إلى الجريدة.. لن يستطيع إنقاذ نفسه من المهزلة التي وقع فيها.. كان يحدث ذلك في السابق، ولكن لم يكن يُعرف أن المقالين لكاتب واحد. مقالان متناقضان.. الأول يحتل صدرَ الصفحة الأولى والثاني في الداخل.. مهزلة، كيف يبررها؟!

* * *

انتابته تلك الحالة التي يستسلم فيها تماماً.. ولا يعود لأي شيء في الدنيا أهمية خاصة. ما الذي يهم رجلاً يائساً يصعد درجات المشنقة ليعدم؟ تأرجح هكذا ثم جلس على حافة الرصيف. وفي موجة العبث اليائس ذاتها.. تذكر الرسالة.. مد يده إلى جيبه تناولها.. فتحها..

الأستاذ أحمد الصافي
تحية وبعد..

ها هي السنوات تمر، اصناف كثيرة من البشر تصادفك في هذا العالم المعدني، المزنر بالقضبان، والوحشة، والليالي الطويلة.

تعلمت الكثير.. ولعلّي تغيرت، أو تجذرت في نفسيَ وفيمن حولي، فيما كان جميلاً فيَّ، وحاولت دائماً تجاوز نفسي بأن أتركها تتبع خيط ضوء نحيل، أو خبر مُفرح يتسلل عبر الأسلاك.

تعلمت أن أُواصل البحث عن الحياة، أن أجدها وأن أحميها في الأمور الصغيرة.. التفاصيل تصبحُ رمزيةً في السجن، لأن الانسان يحاول اختصار العالم وتجسيده في حبيباتها.

وتعلمت شيئاً كبيراً. إنهم لا يستطيعون تحطيمَ، الا ذلك الذي يحمل بذرةَ الحطام في داخله أصلاً.

افتقدك.. أفتقد قصصك.. أين أنت الآن؟. أين جديدك، أين أجدك خارج هذه الكتابة اليومية العابرة..

أُجدد العهد.. بأن أكون دائماً «طفل الليلة الطويلة».. مع أنني كبرتُ قليلاً ولكن هل يستطيع الطفل أن يكون أكبر من أُمه في لحظة ما؟؟

هل...

لم يستطع أن يُكمل.. قامَ وبدأ يركض.. وكلما لمح أحمد الصافي يركض خلفه إزداد اندفاعاً..

انهك.. وسقطَ

سقطَ في الشارع.. عند عتبة البيت.. عند عتبة الجريدة.. عندَ قدمي الجنرال.. فوقَ السرير. لم يعرف.

كان في العتمة قابعاً.. تحسستْ يده ما حوله.. وقعتْ على نتوء صغير.. تأكد أنه مفتاح كهربائي.. ضغط عليه.. أُضيئت الغرفة.. كان في غرفة فارس استيقظ الفتى.. قفزَ إليه واحتضنه.. كشفَ عن صدره فظهرت البقع السود.. كشفَ عن صدر ابنه.. عانقه.. شدّه اليه.. كان يريد أن تعلق به بعض البراءة.. أن يغتسل بها.. كان فارس جامداً.. فزعاً، وعندما نظر أحمد الصافي إلى وجهه.. لم يكن ذلك الولد الذي عَرفه.. لم يكن بريئاً إلى ذلك الحد الذي كان يتصوره، لقد كَبُرَ الولد. وغادر براءته القديمة مثل كل الأطفال الذين يكبرون. بل إنه كان يشبهه.. يشبهه جداً حين كان بعمره.

في الشرفة المقابلة بدأ الكلب ينبح.. بمجرد أن رأى نافذة غرفة فارس تضاء.. ورأى الخيالات تتماوج فوق الستائر.. عندها.. لم يُقاوم أحمد الصافي رغبته في النباح.. نبح يرّد على الكلب.. نبح طويلاً.. حتى سقط على وجهه وغاب.. مدّ فارس يده سَحب لحافاً وغطاه.. وظلت فتنة.. غارقة في نومها الثقيل المعتاد.

* * *

خيطُ ضوءٍ نحيل تسلل عبر ستائر النافذة باتجاهه، هابطاً بأقدام أثيرية، نقطة صغيرة كان، وبدأت تتسع، وتشتت آخر ما تبقى من الليل، آخر ما تبقى من ظلام، تسلقت الجنب الأيسر لأحمد الصافي الذي كان عارياً، وهنا، توقفت طويلاً حاولت أن تدحَر هذا السّواد الليلي عن جسده، مرةً.. وثانيةً وثالثة.. ولكنها لم تستطع، رمتْ بكل ثقل الشمسِ الصاعدة إلى سمائها الزرقاء، أنشبت خيوطها في الجسد، حاولتْ ثانية، وعندما أدركت أن هذه البقع السود ليست ليلاً أو ظلاً، وأنها لن تستطيع تبديدها، انتشرت في الغرفة بجنون، واحتلتها.. فانكشفت الغرفة بكل ما فيها.. وأحس أحمد الصافي بمخالب الضوء تغوص في عينيه.. فانتفض.. وراح يختفي في قميصهِ عميقاً.. عميقاً.. مثل خُلد.

* * *

حاول أن يجمع شتات الليلة الماضية.. الليلة الطويلة الجديدة، وحين تذكر تفاصيلها، اكتشف أنه بعيد عن نفسه، عن كل شيء، وأن المدينة تلوح مثل جثةٍ تحللت وما زالَ الرمحُ مغروساً بين أضلاعها.

اكتملت الليلة الطويلة.. بحثَ عن طفلها.. رآه في المرآة يتسلق احشاء إسمنتيةً لجثة متحللة.

سمعَ صوت خطى تصعدُ الدرج الخارجي للبيت، وسمعَ الكلبَ ينبح، ركض باتجاه الباب فتحه، تناول الجريدةَ من يد الموزّع الذي كان ينحني ليضعها على العتبة في تلك اللحظة، ارتفع نباح الكلب، التفتَ

نحوه.. تبادلا النظرات لثواني، ورأى عيني الكلب أكثر وضوحاً من أي يوم مضى.

نظر إلى صدر الجريدة، كان أسمه يتربع هناك، تذكر المقال الآخر.. مقاله اليومي.. «الحقيقة الحلوة.. والحقيقة المرة» فتح الجريدة.. استقرت عيناه على صمت كامل، لم يكن المقال هناك.. عندها.. نبح.. بفرح: عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو..

وكان يتمايل مثل درويش

لم يذهب كل شيء سدى. لن يذهب..

ظل الكلب يحدق فيه مستغرباً، تنبه أن فتنة تنظر إليه.. قالت: ما الذي حدث؟ ولم يستطع أن يفسر شيئاً سوى أن يصمت فجأة، ويحدّق في نفسه مذهولاً.

انسل إلى الداخل..

واخفى الصحيفة..

* * *

جلسوا يتناولون طعام الافطار.. أحمد يحدق في وجه فارس، ويتساءل: أين تلك البراءة؟ لعلنا نرى البراءة حين نكون بريئين فقط، وراح يحدق أكثر في وجه فارس.

جاء زامور حافلة المدرسة عالياً. نهض فارس واندفع حاملاً حقيبته مغادراً البيت.

* * *

نبح الكلب في الوقت الذي توقفت فيه سيارة بجانب بيت الجنرال.. هبطَ العمالُ.. يُنزلونَ الأبواب.. المبنى سينتهي قريباً.. إطلالة الكرميد تحت شعاع الشمس.. بياض الحجارة الساطع.. ارتفاع الأسوار المسلحة بقضبان الحديد المدببة.. الباب الألكتروني العملاق ولكن.. بعد أن ينتهي كل شيء.. ماذا سيكون مصير الكلب؟

أرعبته الفكرة: ما هو مصير الكلب؟

اكتشف أنه لم يكن يفكّر.. إنه يتساءل بصوت عالٍ.. حين أجابت فتنة:

أي كلب؟

رد بحنق: كلب الجنرال.

تذكّر المساعد الخاص: ألم يقل إن الجنرال لا ينسى كلابه..

تمنى أن يكون كلباً

- عو.. عو.. عو.. عو..

قالت فتنة.. أصبحت طريفاً في الفترة الأخيرة.. ألا تحس بما يحدث لنا؟.

ألقى عليها نظرةً غائبة عن كل ما حولها.

قالت: هل تحدثتَ مع صاحبك؟

قال: مَنْ؟

قالت: الجنرال.

قال: ومَنْ قال لكِ إنه صاحبي..

قالت: يا أحمد يكفي.. الدنيا كلّها تعرف بذلك.

قال: أي دنيا.. وماذا تعرف؟.. صرخ بحنق.

قالت: العالم كله يعرف أنك أنت الذي تكتب كلمة الصحيفة منذ سنوات، والعالم كله يعرف أن السيارة هدية من الجنرال.. والبيت ليست كل حجارته من عرق جبينك..

قال: وأنت تعرفين ذلك من البداية.

قالت: قلت لك العالم كلّه يعرف.

أدرك للمرة الأولى أن الجنرال يحتل بيته منذ زمن بعيد، يقاسمه سريره يقاسمه زوجته.. وفارس، وإن كل ما حوله ينهار بفعل سوس شَرِهٍ.

قال: عرفتِ كل شيء من البداية.. وسكتِ

وظلت ساكتة.. لم تُجب.. ألم يسكت أولاً

رن جرس الهاتف.. مشى نحوه ثقيلاً كقتيل

- ألو..

- أحمد الصافي؟

- نعم.

- كلب.

وأُقفل الخط في وجهه

نبحَ الكلب في الوقت الذي كانت السيارة تغادر فيه بيت الجنرال.. كان يهوي على مقعده.. حين سألته فتنة.

: من كانَ على الهاتف..؟

لم يستطعْ الاجابة.

رن جرس الهاتف ثانية.. نهض.. مشى باتجاهه.. ثقيلاً كقتيل..

- ألو

جاء صوت فتاة أو طفلةٍ ربما.. من الطرف الآخر. جاء حاداً كرمح غاضب.

- بيت أحمد الصافي؟

- نعم

- أنت هوَ؟

- نعم.

- كلب.

* * *

الآن ادرك أن الجريدة أصبحت في أيدي الناس، كل الناس.. في كل البيوت في الساحات، الشوارع، المكاتب، المكتبات، المدارس، الجامعات، في كل شيء.

رن جرس الهاتف ثانية.. لم ينهض من مقعده، همتْ فتنة بأن تنهض.. صرخ فيها. الاّ ترد.

وكان مكتب الجنرال هو المتصل هذه المرة.

أعاد المساعد الخاص للجنرال السماعة إلى مكانها.

عمّ صمت واهن اللحظات، حين دوى جرس الهاتف ثانية..نهض

مجنوناً وتناوله بكل ما فيه من قوة.. انتزعه من مكانه.. فتقطعت الأسلاك.. وعمّ الصمت.

* * *

أوصل فتنة إلى عملها.. دار في الشوارع.. أحس أن كل الناس ينظرون إليه.. أن العيون تصرخ به: كلب.. كلب.

أحس بنفسه طافياً كخشبة منهكةٍ في نهر هادرٍ. لم يدر أين سيتوقف. كان يدور فقط.

عو..

لم يقلها ذلك الطفل الذي كان يخرج رأسه من نافذة العربة المحاذية لسيارته عند الاشارة الضوئية.. ولكن أحمد سَمِعَها.. ولأن الذي قالها طفل صغير فقد نبح أحمد في وجهه مثل جرو: عو.. عو.. عو..

ظن الطفل أنه يداعبه.

فأخذ ينبح هو الآخر.. وبعد لحظة أخرج جرو سلوقي رأسه من نافذة العربة التي يوجد فيها الطفل وبدأ ينبح هو الآخر: عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. حدّق أحمد الصافي فيما حوله فَزِعاً.. رأى المدينة ممتلئة بعشرات الآلاف من الكلاب!! عو ـ عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو. عو. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو..

كانت السيارات المتوقفة خلفه عند الشارة الضوئية تطلق أبواقها، حين لمحَ الأخضر يصعد نحو سطوع البرتقالي.. انتبه إلى ذلك.. حاول أن يسير ولكن البرتقالي ارتفع فجأة.. دخل في الأحمر واختفى.

* * *

قررَ أن يختفي.. لم يعدْ للبيت ظهراً.. لم يستطع الاختفاءَ طويلاً..

هذه المدينة تبقى قرية مهما اتسعت. عاد ليطوف حول مكان الجريمة حول الصحيفة.. حول مقاله.. حول مقر الجنرال.

سقطَ الأسود وأبتلع الألوان كلها..

إنه الليل.

صعدَ درجات الجريدة.. اندس في مكتبه.. اقفل الباب خلفه، رنّ جرس الهاتف: تناول السماعة.

جاء صوت رئيس التحرير: أين أنت؟.. كنت ستفضحنا لو لا انني انتبهت إلى مقالك الآخر في اللحظة الأخيرة وسحبته من التصوير.

- ..

- على أية حال. مكتب الجنرال اتصل.. أخبرنا أن ننقل لك رضاهم.. حاولوا أن يتصلوا معك كثيراً.. الا أن أحداً لم يكن يجيب.. عم ستكتب غداً؟

- لا اعرف بعد.

على كل.. أنا مضطر الليلة لمغادرة الجريدة.. آمل أن تقوم بمتابعة العمل.. هناك جلسة حوار مع الجنرال. هل توصي بشيء.

- شيئاً واحداً أُريده منك.. أن تتحدث مع الجنرال بشأن البيت.. أنت تعرف التفاصيل..

- لقد تحدثت معه سابقاً ولكن اطمئن.. هم راضون عنك هذه الأيام.. والجنرال على اطلاع كامل.

- فقط أُريد أن تذكّره.

- ولا يهمك!!.

* * *

من نافذة مقره.. مكتبه.. كان يطل على الدنيا.. وخلفَ الأفق. كان الجنرال يرى ما لا يحبه.. ما يبعث في نفسه الكثير من عواصف القلق، طائرةٌ شراعية تتجاوز الحدود الشمالية ومقاتل واحد يقتحم معسكراً

اسرائيلياً بكامله، قائد احدى وحداته العسكرية يقود مجموعة مقاتلين «مدنيين» ويعبر الحدود.. لينفذ عملية عسكرية ناجحة، وتلك.. تلك المظاهرات التي بدأت تشتد.. وبدأت أجهزة الاعلام تطلق عليها اسم «الانتفاضة».

أحس أن عيون كلابه خذلته.. وان عليه أن يتخلص من بعضها.. تحسس مسدسه.. ما للأرض تتزلزل هكذا؟. وللمرةِ الأُولى منذ دهرٍ.. شعرَ أنه بحاجة إلى حرسه الخاص.

* * *

جلس أحمد الصافي في مكتبه ساكناً.. حدق في اللوحتين أمامه.. عجيبٌ أمر هذا الغزال.. منذ أن جاؤوا به إلي والكلاب تنهشه، ظل واقفاً، عجيب امر دونكيشوت.. إنه لا يتراجع رغم ضعفه وهزال فرسه وسمنة سانشو.. عجيب.. ولكنهم ليسوا مـن هذه البلاد!!

- وسعد
- مَنْ سعد؟
- سعد «طفل الليلة الطويلة»؟
- لا أذكره؟

لماذا لا أدخل في الموضوع الآن.. عمَّ سأكتب للغد، فكر أن يكتب عن الجنرال كرائد للوحدة والحرية، اكتشف ان الموضوع استهلكه رئيس التحرير وكرره آلاف المرات، فكر أن يكتب عنه كأب للمجتمع ورب للعائلة الصغيرة ولكنه وجد أن الموضوع غير مناسب هذه الأيام، فكر أن يكتب عن المظاهرات في الأراضي المحتلة.. اكتشف أنه غريب عن لغتها.. مزّقَ الكثير من الأوراق.. لم تطاوعه الكلمات.. وأخيراً وجدها.. إنها الفكرة المطلوبة التي يبحث عنها..

قفز فَرِحاً في الهواء المقيد: عو.. عو.. عو.. عو.. عو..

ضبط نفسه متلبساً بالنباح.. جلس مرعوباً وقد طارتْ فرحة الاكتشاف من رأسه.

* * *

صدرَ الأمر في وقت متأخر من تلك الليلة.. وهذا بحد ذاته دفعَ الجنود للاحساس بخطورة المهمة الموكلة اليهم، فلا يعقل أن يُستلوا من سُباتهم لسبب تافه.

المهمة خطيرة إذن.

كانت محركات السيارات مشتعلة، هدّارةً، توحي بمشهد من فيلم حربي.. نال الاوسكار عن تقنية الصوت، ولم يكن ذلك غريباً.. فالمحركات أمريكية.

اندفع الجنود إلى أرحام العربات القاسية، وتكوموا فوق بعضهم.. لا أحد يستطيع أن يتوقع ماهية الهدف الذي ينطلقون اليه.

السيارات تشق الليل القتيل وصمته المعتاد في المدينة الكبيرة النائمة، عبر شارع المجد فشارع الحرية فشارع الشعب وتنعطف الى شارع الشهيد وتوغل في مسافاته، في ليلة غير هذه كان يمكن أن تمر سيارات مدنية حتى في هذا الوقت.. مثل رصاص طائش، ولكنها اختفت تماماً هذه الليلة. ربما.. مصادفة.

انعطفت السيارات باتجاه شارع ضيق مضاء بشحوب واضح..

إذن.. الهدف هو السجن.

هل حدث تمرد؟ هل فرّ بعض السجناء؟

أسئلة كثيرة بلا إجابات.

هبطَ «الأنيق» من عربة مدنية، كانت في مقدمة القافلة المستنفرة، فبدا أكبر كثيراً من عمره، أكبر من تلك السنوات التي مرت منذ التحقيق مع سعد.

منذ ذلك اليوم. ظل يحاول إثبات حضوره، قسوته.. ساديته.. كان يريد التكفير عن جريمة النوم أثناء العمل الرسميّ. حيث ضبطه الجنرال..

المساعد الخاص قال يومها: نطرده سيدي

قال الجنرال: بالعكس، منذ الآن سيبقى ساهراً إلى آخر عمره وهكذا بدأ السهر المتواصل ينخرُ ملامحه..

تراكض الأنيق وتقافز مثل جندب في غابة.. يوجه الأوامر.. منتعشاً كان.. اجتمع الجنود في ساحة السجن.

قال: هناك تمرد.. ومهمتكم واضحة.. ان تحطموا أولئك الذين يتطاولون على هذا البلد ويتطاولون على الجنرال.. كنت سأقول لكم.. أُريد كل السجناء هنا.. بعد خمس دقائق.. ولكن.. لا.. أُريدهم هنا بعد نصف ساعة.. خذوا راحتكم في الداخل.. حطموهم.. افهمتم.. مزقوهم.

وكان الليل هادئاً لا يوحي بهبوب هذي الريح.. الاحلام الصغيرة تذرع الزنزانات وتتسلل عبر الكوى الصغيرة من رأس إلى آخر..

أين يتعلم الجنود كل هذا الحقد؟

فجأة.. أُشرعت أبواب الزنازين.. أندفعت الهراوات وأعقاب البنادق.. البساطير الثقيلة.. والعيون الباحثة عن فرائسها الغافية. وعلا الصراخ.. احتل الهواء الساكن في الليلة الساكنة الهادئة.

كان يحلو للجند أن لا يعرفوا أين ستقع ضرباتهم. هل كان ذلك يريح ضمائرهم أكثر؟ أم يزيد الأمر إثارة وبهجةً؟

نصف ساعة.. نصف ساعة أطول من عمر الدنيا، حطت بنصالها ووزعت اللحم الممزق على ثوانيها.

كان الأمر واضحاً: هناك حركةُ احتجاج في السجن يجري تنظيمها الآن للمطالبة بتحسين أوضاع السجناء. يجب تحطيمها قبل استفحالها.. نريدهم أن يترحّموا على أوضاعهم القديمة.

* * *

وتقدم الليل

وجدَ أن عليه الامساك بعنق فكرته.. ان يبيضها كدجاجة ويبتعد. ولكن أين سيبتعد.. عليه أن يحمل أول نسخة من عدد الغد يتفحصها يطمئن عليها، قبل العودة إلى البيت.

أدرك أخيراً أن الوقت بدأ يأكله.. لم يرد أن يضيّع أية ثانية.

يجب أن أنتهي من كلمة الصحيفة بسرعة.

سأكتب عن النهضة العمرانية.. التي شهدها هذا البلد في السنوات العشرين الماضية.. والمستوى الفني الرائع الذي وصلت إليه الهندسة، بذلك أضرب عصفورين بحجر، نعم، بذلك أُفرح الجنرال بمناسبة قرب انتهاء بيته الجديد، وأُذكره أن لي بيتاً بطريقة غير مباشرة.. نعم سأكتب عن العمران، عن الخراب عن الدمار عن الهندسة، عن أي شيء.. المهم أن يتذكر.

عبر السطور كنجم يعرف مداره تماماً.. صفّا ذهنه.. هو يعرف أن ذهنه يصبح صافياً تماماً بعد الدخول إلى الكتابة، وكلما أوغل فيها زاد صفاءً.. الكتابة هي أكثر الأشياء غرابة في العالم، كيف تتكشف الخفايا تحت النقطة الصغيرة المتقافزة من حرف إلى حرف.. تلك التي يسمونها رأس القلم.

تغيّر أحمد الصافي.. لم يعد ذلك الشخص الذي ينبح.. صفا وجهه، هدأ نبضه المتفجر.. والقلق المتصاعد المصدِّع، أحس أن العالم طوع يده.. كما يريد.. وأفضل مما يريد.

* * *

ضغطَ مفتاح الجرس.. هبّ المراسل.. حمل المقال إلى المطبعة..

استلقى على الكرسيّ متنفساً ملء رئتيه.

دخل عليه المدير الفني.. مرةً.. مرتين.. ودائماً يحمل في يده صفحة جديدة من الجريدة لكي يلقي نظرةً عليها قبل دفعها إلى قسم التصوير.. في النهاية تجرأ وقال:

هناك.. هناك إشاعات تبدو حقيقية تتردد هذه الأيام أُستاذ أحمد.. وأنت تعرف أن توقعاتي لا تخيب. وكان يشبه الثعلب تماماً.

ـ ما هي؟

ـ يقولون أنك ستصبح رئيساً للتحرير.

ـ من قال لك ذلك؟

ـ الجميع يتحدثون في الأمر.

ـ وما الذي أدراهم

ـ يقولون بما أنك ستصبح جاراً للجنرال.. فإنك حتماً ستكون رئيساً للتحرير.

ـ كيف؟

ـ يقولون.. الجنرال لا يقبلُ أن يكون جاره أقلّ من رئيس للتحرير.

ـ صحيح؟

ـ نعم صحيح

عند ذلك أفلت ذلك النباح اللعين «الجنرال لا ينسى كلابه»: عو.. عو.. عو.. عو..

ذهل المدير الفني من ردة الفعل.. تراجع خطوات وانسحب دون أن يشعر به أحمد الصافي.

في الخارج سأله المراسل: ماذا حدث للأستاذ.

رد: العوض بسلامتك.

* * *

كان الجنود يطوّحون بالأجساد التي أصبحت شبيهة بالجثث.. يلقونها في منتصف الساحة، كان يلزمها الكثير من القوة حتى تتحامل على جراحها وتنهض لم يستطع الأنيق أن يطمئن إلى كفاءة الجند الآ بعد أن أصبح السجناء في الساحة.. وفُتحت عيونُ الكشافات الكهربائية.

هذه هي العملية التي كان يتمناها دائماً.. أن يأخذ بكل ثاراته مرةً واحدة.. طلبوا من السجناء أن يتوضوا.. وأن يصلوا.

ظنّ بعض السجناء أنهم سيعدمونهم.

ولكن الأنيق صرخ فجأة: لا.. تيمموا.

وعندما لم تصدر حركة واحدة عن الأجساد المحطمة.

قال: سنساعدهم

أشار إلى الجنود.. فانطلقوا ثانيةً صوب اهدافهم الواضحة.. دماؤها تدل عليها.. وبالبنادق والهراوات والبساطير خلطوهم ببعضهم وبالتراب. عملية تيمم قسرية.

قال الأنيق الآن نستطيع القول انكم على وضوء وطاهرون.. وبامكانكم أن تصلوا.

- صلوا.. صلوا.. صلوا.. للجنرال.

وثانيةً بدأ فصل جديد من مسرحية الموت، حين رفض السجناء الاستجابة.

* * *

اندفعت سياط خراطيم المياه كالمفاجأة.. بامكان الناظر اليهم أن يميّز بعض الوجوه، بعد دقائق من هذا الحمام الدمويّ، لمحَ الأنيق سعداً. كان قد تغير. نعم.. السنوات هذا الوحش الناعم يترك الكثير من الآثار خلفه بالاضافة إلى الضرب الذي تلقاه منذ لحظات.. لم يقدم بعد للمحاكمة. ظلّ موقوفاً طوال هذه المدة.. كل ما فعلوه أنهم حولوه إلى السجن.

قال له الأنيق: أما زلتَ تقرأ قصصاً تافهة مثلك؟

أشار إلى الجنود أن يبدأوا عملية تفتيش دقيقة للزنازين.

قال: سأفتش زنزانة هذا.

وطالب أحد الجنود بأن يجر سعداً المنهك تماماً.

دخلوا الزنزانة. ثلاثتهم، بدأ الأنيق يفتش بأناقة واضحة، تبين فيما بعد أنها ليست أناقة، قرف. لاحظ أنه لم يزل يتصرف كما كان يتصرف أثناء التحقيق.. من الصعب أن ننسى العادة.

تحت البرش الرمادي المخضر، لمح قصاصات من أوراق الجرائد.. وعدداً من صفحات كتاب ممزقة «البطل في الزنزانة» كانت الصفحات جديدة، بل يبدو انها أُحضرت لسعد أمس، كيف دخلت؟.. لا يدري أحد.. ولكنها هنا. بدأ يتصفح قصاصات الجرائد، قصصاً وأشعار

لشعراء وقاصين تعرّفَ سعد على كتاباتهم خلال وجوده في السجن.. فوج جديد من الكتاب.. كم تمنى أن يراهم، وأن يحصل على نتاجهم.. وللحقيقة أن بعض الأمنيات تحققت.

قال الأنيق: لديك مكتبة.. من أين حصلت على كل هذه الأوراق؟

ـ من الصحف.. صحفنا المحلية.

ـ وهذه.. من أين؟

وكان يشير إلى الأوراق المنزوعة من كتاب.

ـ كانت في السجن منذ أتيت.

ـ كاذب.

ـ ...

* * *

كان سعد قد قرأ مقال أحمد الصافي الأول الذي تصدّر الصفحة الأولى، ولم يكن يقرأ لأحمد الصافي الذي يعرفه، ساعتها عصفت غابة من الرماح ومزقت قلبه.. وللحظة أحس أنه مكشوف في صحراء عارية لاهبة.. وأن الجنود يلقون القبض عليه للمرة الثانية.. أحس أن مجموعة الحماية انسحبت في أكثر الأوقات حاجة إليها. ولكنه هدأ.. ساقه قلبه إلى الزنزانة.. اندفع باتجاه البرش.. أخرج كل ما لديه من قصاصات، وبدأ يقرأ.. كُتّاب جدد.. فوج جديد.. عادت فرقة الحماية إلى مكانها.. تعززت من جديد.. وتلاشت وحشة الصحراء من روحه.. انقشعت غيمة السواد، أحس أن الدنيا بخير، ولكن تلك القصة «البطل في الزنزانة» وصلت فعلاً في ذلك اليوم، فالصديق الذي زاره كان يعرف أن سعداً بحاجة إليها الآن.

قال الأنيق: مَنْ كاتب هذه القصة؟

ـ غسان كنفاني.

ـ من عِندنا هذا..؟

ـ إنه منّا

* * *

راحت خطى الليل تذرع الدنيا، تتقدم مضطربةً إلى الأمام، وهي

تعرف نهاياتها، شمس ما ستخرج وتبددها، تفتت سوادها.. تمزقه.. خطى تتقدم، وتتناسى، كأنها لا تعرف إلى أين تُفضي.

* * *

«إعلان استملاك»

عملاً بأحكام قانون الاستملاك، أُعلن للعموم بأنني ومن تاريخ نشر هذا الإعلان بالجرائد المحلية، سأتقدم بطلب إصدار قرار بالموافقة على استملاك كامل أراضي منطقة «ضاحية الغابة»، والتي تبلغ مساحتها ٨٤٢ دونماً استملاكاً مطلقاً فورياً دون التقيّد بالاجراءات المنصوص عليها في القانون، لغايات استخدامها بما يعود بالنفع على المصلحة العامة، على أن يتم اختيار لجنة لإجراء الكشف الحسيّ على العقارات المقرر حيازتها، لإثبات أوصافها بصورة دقيقة ومفصلة للاستئناس بهذا الكشف لاحقاً.

«مدير مصلحة العقارات»

* * *

- هذا من اختصاصك، قال مدير الإعلانات للمدير الفني.
- لا بل من اختصاصك أنت.

- حين يتم إحضار إعلان في ساعةٍ متأخرةٍ.. فإنكم أنتم الذين تقررون النشر أو عدمه.

- ولماذا يأتي متأخراً في هذه الساعة لقد تم تصوير كل الصفحات باستثناء الأولى تقريباً.

- أنت تعرف حساسية هذا الإعلان.
- هناك حلٌ.

كتب المدير الفني ورقة
الأستاذ أحمد

هذا الإعلان جاءنا متأخراً.. إستلمناه الآن نرجو أن تقرر ما إذا كنا سنقوم بنشره أم لا.

حمل المراسل الورقة كما حمل طرفة بن العبد رسالةَ موته، ودخل.. في تلك اللحظة التي كان فيها أحمد الصافي يستعيد بعض الجُمل التي كتبها في «كلمة الصحيفة» فَرِحاً.

تناول الإعلان.. قرأ الورقة. ثم بدأ بقراءته.. وكلما أوغل في السطور، كانت همهمته ترتفع أكثر، وترتفع، هذه الهمهمة التي ستتحول تدريجياً إلى صوت أوضح.. مألوف.. إلى نباح، لم يدرك أحمد الصافي أن هذا مجرد إعلان.. وأنه ليس قراراً.. إن القرار يصدر فيما بعد. لم يدرك.

- عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو.. عو..

وبدأ يركض خلف المراسل عبر الممرات.

* * *

كان سعد قد قرأ القصة.. فيها الاجابة التي يبحث عنها بدقة، من قصص بدايات غسان كنفاني، كتبها في الكويت.. أواخر الخمسينات. كانت تلبي نداء الأسئلة المجروحة.. وتلجم ثيرانَ الخيبة القاتلة.

ظلّ سعد يدور في ساحة السجن: أحمد الصافي.. مش معقول. ظل يدور مردداً العبارة نفسها، حتى الحادية عشرة ظهراً حين سمع أسمه عبرَ مكبر صوت السجن. هناك مَنْ أتى لزيارته..

قرأ في القصة.. وهي عبارة عن رسالة من صديق إلى صديقه الكاتب «قرأتُ لك أخيراً مجموعة لا بأس بها من الأقاصيص المنشورة هنا وهناك، وسرّني بالفعل أنك قد تخلصت إلى حد بعيد من ذلك «الافتعال» اللزج الذي يُثقل طبيعةَ القصة ويعرقل انسياب حوادثها، إن أصعب ما في كتابة القصة، هو التخلص من ذلك «الافتعال».

لكنني، وأصدقك القول، لا أفهم تماماً ما هيةَ هـذا الذي يدعونه «الافتعال» فإن كان يقصد منه ضعف الأسلوب وتقصيره عن إظهار الحادثة بشكلها الطبيعي، فأنا موافق، أما إذا قُصد منـه أن الحادثة في القصة هي حادثة تعوزها الإمكانية والعفوية، أو أنها حادثة بسيطة إلى حد ليس لها فيه أية قيمة، فأنا لا أوافق. إذ إنني أعرف قصة حقيقية مع

واحد من أصدقائي، وكلما فكرت في أن أكتبها، لمحتُ فيها مُقدماً، خطوطاً ثخينة من هذا «الافتعال» تُحدد بعض جوانب حوادثها.. لماذا؟ إنني في الحقيقة لا أدري، أو، ولأعترف بذلك. إن حوادث القصة ذاتها ليست فيها أشياء كثيرة تحفظ عليها بنيانها القصصي، وأخاف أن أزيد على أحداثها كي أُخلصها من الضعف والافتعال فأقع في الكذب».

«فأنا على هذا أُحب أن أكتبها لك كما هي.. إحتراماً للبطل والحادثة».

ثم يسرد الكاتب قصة رياض التي تعكس نفسها على كافة جوانب حياته، ويبذل جهداً هائلاً لكي يرتفع بنفسه إلى المستوى الايجابي المُنتج لقضيته.

يبدأ العمل بدأب صامت.. وتتوطد صداقته مع أصحاب الدار الجديدة التي سكنها بعد أن غادرالخليج، يزورونه ويزورهم.. «حتى عاد مساء ذات يوم مرهقاً، فوجد الشرطة على الباب، إقتادوه إلى المخفر، نفى كل التهم الموجهة إليه.. لم تُجد الشتائم.. ولا السياط. بقيَ صامداً ولكن الأمور تجري بقسوة أشد..

حُمل إلى غرفة الضابط المسؤول وأعيدت عليه مجموعة الأسئلة التقليدية وما لبث الضابط أن أراه أوراقاً، كان قد كتبها في غرفته: منشورات، ولكنه تشبث بالنقطةالأخيرة التي بقيت لصموده، لقد قال أن هذا الخط ليس خطه، وأنه، على هذا، لا يتعرف على الأوراق».

«وبدأت الخطوط تتجلى شيئاً فشيئاً، إن صاحبة الدار هي صاحبة الوشاية، وهي التي كانت تنسخ أوراقه أثناء خروجه في الصباح».

«لقد قرأت القصة على صاحبين من أصحابي، وطالبتهما بنهاية تسر القاريء، أو على الأقل ترضيه، فاقترح أحدهما: أن يهرب رياض من السجن بكيفيه ما، ولكنه طالب بأن تكون عنيفة، وأن يذهب لتوه إلى الدار فيقابل «أم...» ليقول لها: إن وشايتها عذبت إنساناً وآلمته، وأرهقته.. ومن ثم يتركها لتأنيب ضميرها».

«واقترح الآخر ـ وهو من قراء دوماس ـ بل يجب أن تجري الحوادث الآن على نحو مغاير إن المرأة هذه، تشعر فجأة أنها تحبّ رياضاً حباً عنيفاً.. ألمْ تقلْ أنها في الثلاثين.. حسن جداً...... و تذهب إلى السجن لتقابل رياضاً، ولتقدم له الطعام والدخان، ولكنه يرفض فتصر، ويصرّ هو على رفضه، وتشعر فجأة بجريمتها، فتقرر قراراً عنيفاً».

«إنني لا أُوافق على هذه الثرثرة، وأُدرك كم أنت مشمئز الآن، ولكن. أرجو أن تسمع رأيي في الموضوع، إنني متأكد من نهاية هذه القصة، تأكدي من أن الشمس ستغرب اليوم على طرف الخليج، مثل كل يوم، إن الوضع الهزيل القائم سيتهاوى لا شك، وسيخرج رياض من السجن، وسينغمس مرةً أُخرى في مشاغل القضية التي آمن بها، وتعذّب من أجلها. أما عن «أم...» فستضيع بين أكوام التجارب الصغيرة التي مرت به...».

«ماذا ترى أنت؟!».

* * *

خرج الموظفون يستطلعون الأمر.. ثم دخلوا مكاتبهم وأغلقوا الأبواب على أنفسهم، رنّ جرس الهاتف في مكتب أحمد الصافي لم يُجب أحد.. ثم رن في غرفة المدير الفني.. الذي رفع السماعة بفزع.. وكان على وشك أن يطلب الشرطة.

ـ ألو.. لا أستطيع التحدث طويلاً. إسمعني.

كان صوت رئيس التحرير على الطرف المقابل.

ـ هل أحمد موجود؟

ـ نعم!

ـ قُلْ له أن الجنرال استجاب لطلبه.. سيستثنيه.

عادت الفوضى إلى ما كانت عليه.. نباح متصاعد.. ضجة.. من يجرؤ على الخروج الآن من مكتبه.. تعب أحمد الصافي.. تجرّح صوته.. أدرك ذلك.. قال: لا.. صوتي يجب أن يصل صافياً حتى لا يستاء الجنرال مني.. أليس كذلك؟

إنعطف.. وغادر مبنى الصحيفة.. ركض في الشوارع.. لم ينبح

سوى مرات قليلة.. تلك التي شاهد فيها أو سمعَ كلاباً تنبح.

ليلة الجمعة.. والمدينة تتناسل هادئة، ظل يركض، وعندما بدأ يصعد الطريق باتجاه «ضاحية الغابة»، بدأ يخلع ثيابه تدريجياً.. ويلقي بها في الهواء.

تجاوز بيته.. كان غارقاً في العتمة.. لم ينتبه لمروره بجانبه.. صعد درجات بيت الجنرال.. البيت جاهز.. نبح الكلب في البداية.. ولكنه عاد لصمته.. إقترب منه أحمد الصافي.. النهار لم يكن بعيداً. والجنرال يأتي صباحاً.. اقترب من الكلب.. احتك به، أَحَسَّ بدفء فروته الناعمة فوق جلده، كانا أشبه بتوأم.. البقع السود تجلل بياض كليهما هكذا كانا تحت الضوء القادم من أعمدة الكهرباء.

ظلا يحتكان ببعضهما كصديقين التقيا بعد غربة طاعنة. طيبان وناعمان، امتدت يده إلى الطوق المُحْكَم حول رقبةِ الكلب، عندها فقط غضب الكلب، زمجر، ونبح، وتقافز مبتعداً، ثم عاد وهدأ.. اقترب أحمد ثانية منه، مارسا طقوس الاحتكاك الطيبة ببعضهما من جديد، إطمأن الكلب، امتدت يده وانتزعت الطوق بلطف، رآه الكلب يضعه حول رقبته.. زمجر من جديد غاضباً، وللحظة أحس أنه افتقد شيئاً يخصه، دارَ حوله.. نبح بصوت مرتفعٍ.. عو.. عو.. عو..

ضرب أحمد الصافي الأرض بيديه وكان يحبو على أربع، فابتعد الكلب قليلاً.. فوجد أنِ المدى المتاح له للحركة الآن أكثر اتساعاً، دون ذلك الطوق.. ابتعد أكثر فوجد أن التجربة ما زالت تنجح وتنجح وأن المدى يتسع أكثر وأكثر، تبادلا نباحاً لا يعرف أحد معناه.. وعندما بدأ الضوء يتسلل صوب الغابة وضاحيتها.. كان الكلب قد أدرك تماماً أنه لم يعد أسير الطوق.. فهبطَ الدرجات.. نبح.. وراح يعدو مبتعداً.. وكأنه لن يعود.

* * *

سأل الأنيق: أما زلتَ تقرأ لأحمد الصافي.

-

- تقرأ لغيره إذن.. لم يعد يعجبك.. آه.

- ما رأيك أن نروض لك غسان كنفاني أيضاً؟

عندها ضحك سعد.. ضحك.. لم يستطع أحد أن يوقفه.

وجه له الجندي ضربة قاسية.. زلزلت معدته، وعندما أفاق على سطل الماء الذي دلق على وجهه، كان الأنيق يسأل بحنق.

: هل ستقول لي الآن لماذا تضحك؟

جمع سعد آخر ما تبقى في جسده من حروف.. ونثرها ثانية مبعثرةً في كلمات:

: غسان استشهد من «ستعشر» سنة.

* * *

أقعى والطوق محكم على رقبته.. نبحَ مرةً أو مرتين حين كان يسمع محرك عربة يدار في الجوار، فبدا وكأن الكلب لم يغب عن المكان.

وعندما سمع ذلك الصوت الأليف لمحرك سيارة الجنرال.. وكانت الساعة تقترب من التاسعة، أطلق ذلك النُّباح الطرب الناعم، وعندما توقفت السيارة عند الباب تأمل الجنرال بيته بزهو، أنساه للحظات مشكلاته الجديدة التي بدأ يتخبط فيها.. وخارج السور توقفت سيارات أخرى.. لم تكن سوى سيارات حرسه الخاص.

أخذ يصعد الدرجات في الوقت الذي انتشر فيه الحراس حول البيت، في يده كيس صغير مليء ببقايا الطعام، وصل الشرفة، وهناك رأى الكلب يتمرغ في الأرض، الذي ما لبث أن اقترب من الجنرال.. إحتك بساقيه.. ألقى الجنرال ما في داخل الكيس على الأرض، كان ساهماً، مسح فروة الرأس، صعد الدرجات إلى الطابق العلوي..كعادته.. وهناك ألقى نظرةً تأمل فيها الكون متمثلاً في المدينة الكبيرة. التي تلوح عن بعد.. تأمل الغابة، وما حولها وتوقفت نظرته عند بيت أحمد الصافي. إبتسم للحظة عابرة.. وعاد له عبوسه وهو يتأمل المدينة الكبيرة من جديد.. بعيدة كانت وغامضة، عندها تحسس مسدسه.. وبدأ يتابع إنتشار حراسه في المنطقة..

«أيار ١٩٨٨»

# إبراهيم نصر الله

- من مواليد عمّان عام 1954 من أبوين فلسطينيين اقتُلِعا من أرضهما عام 1948 ، درس في مدارس وكالة الغوث ( مخيم الوحدات ) ، وأكمل دراسته في معهد المعلمين التابع للوكالة .
- عمل مدرّسا لمدة عامين في المملكة العربية السعودية 76-78 .
- عمل في الصحافة الأردنية من عام 78-96 .
- يعمل الآن مسؤولا عن النشاطات الثقافية ـ دارة الفنون ـ مؤسسة عبد الحميد شومان ومستشارا ثقافيا للمؤسسة .
- صـــدر لــه
- شـــعراً : ( الطبعات الأولى )

• الخيول على مشارف المدينة ـ دار الشروق ـ عمان ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت • المطر في الداخل ـ الشروق ، المؤسسة العربية • الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق ـ الشروق • نعمان يسترد لونه ـ المؤسسة العربية • الفتى النهر والجنرال ـ الشروق • عواصف القلب ـ الشروق • حطب أخضر ـ الشروق • فضيحة الثعلب ـ الشروق • الأعمال الشعرية ـ مجلد ، المؤسسة العربية • شرفات الخريف ـ المؤسسة العربية • كتاب الموت والموتى ـ المؤسسة العربية .

- روايـــــة : ( الطبعات الأولى)
- براري الحمى ـ الشروق ، مؤسسة الأبحاث العربية 85 . عَــو ـ الشروق 90. كتاب : الأمواج البرية ـ القدس 88 .مجرد 2 فقط ـ الشروق92 .طيور الحذر ـ دار الآداب 96 .حارس المدينة الضائعة ـ المؤسسة العربية 98 .
- كتب للأطفال : صباح الخير يا أطفال . أشياء طيبة نسميها الوطن .
- شارك في المعرض التشكيلي ( كتّاب يرسمون ) وأقام معرضا فوتوغرافيا في دارة الفنون ـ مؤسسة شومان عام 1995 بعنوان ( مشاهد من سيرة عين )
- ترجمت براري الحمى إلى الإنجليزية ، والحوار الأخير إلى الألمانية ، ونشرت مختارات من قصائده بالإنجليزية ، الروسية ، البولندية ، التركية ، الفرنسية.
- نال سبع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية ، من بينها :

جائزة عرار الأدبية عن أعماله الشعرية 1991
جائزة تيسير سبول عن أعماله الروائية 1994
جائزة سلطان العويس للشعر العربي 1997

# عَوْ...

دار في الشوارع ..
أحس أن كل الناس ينظرون إليه .. أن العيون تصرخ به : كلب .. كلب ..
أحس بنفسه طافياً كخشبة منهكة في نهر هادر. لم يدر أين سيتوقف ، كان يدور فقط .
: عَوْ ..
لم يقلها ذلك الطفل الذي كان يُخرج رأسه من نافذة العربة المحاذية لسيارته عند الإشارة الضوئية .. لكنه سمعها ، ولأن الذي أطلقها طفل فقد نبح أحمد في وجهه مثل جرو : عَوْ .. عَوْ .. عَوْ ..
ظن الطفل بأنه يداعبه ، فأخذ ينبح؛ وبعد لحظة أخرج جرو سلوقي رأسه من نافذة العربة التي يوجد فيها الطفل وبدأ ينبح هو الآخر : عو .. عو .. عو .
حدق أحمد الصافي فيما حوله فَزِعَاً ، فرأى المدينة ممتلئة بعشرات الآف الكلاب : عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو .. عو ..
كانت السيارات المتوقفة خلفه عند الشارة الضوئية تطلق أبواقها ، حين لمح الأخضر يصعد نحو سطوع البرتقالي؛ حاول أن ينطلق، لكن البرتقالي ارتفع فجأة .. دخل في الأحمر واختفى ...


منشورات 99
حرية الكلمة
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي
هاتفاكس: ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١